

صفحات من التاريخ
السياسي للأفكار



مجزرة الجزيرة آبا

لهجرة وأحداث الكرمك ١٩٧٠م



96

د. الصادق الهادي المهدي

صفحات من التاريخ السياسي للأردن

مجزرة الجزيرة آيا

الهجرة وأحداث الكرمك ١٩٧٠م

د. الصادق الهادي المهدي

الإهداء

إلى الإمامين الجليلين .. عبد الرحمن المهدي .. القائد المؤسس الذي
بعث ذلك التراث الجهادي الإنساني الوطني الرائد .. والصادق المهدي
الذي واجه في رجولة متناهية تسلط الأنواقراطي العسكري الأول ...

وإلى شهيد الحق الخالد الإمام الهادي المهدي .. الذي خضبت دماؤه
الزكية أرض الوطن العزيز فداءً لعقيدته وفكره - ليكتب من خلال ذلك
أشرف ملاحم عصرنا الحديث - وإلى روح الشهيذة الثريا بنت الزاكي رمز
التقوى والسماحة والعزة ... ومثيلاتها الشهيذات . وإلى أرواح الشهداء
المجاهدين شباب وشيوخ الأنصار السُّجَّد الميامين الذين استشهدوا في مجازر
أبا وود نوباوي مارس ١٩٧٠م وإلى أرواح أطفال خلاوى مسجد الهجرة
بود نوباوي الذين حرقوا أحياءً بقاذفات اللهب ، وحصدتهم رصاص الغدر
والخيانة ليكتب لهم بذلك الخلود والمجد ، وليبنأوا بمقعد صدق عند ملك
مقتدر .

الصادق الهادي المهدي

مقدمة

هذا الكتاب عبارة عن مجموعة من المقالات التي سبق أن قمت بنشرها في مجلتي التضامن والأشقاء السودانية - وكان الغرض هو ملء الفراغ البين .. بتسجيل فترة حرجة من تاريخ السودان المعاصر تمثلت في أحداث الجزيرة أبا مارس ١٩٧٠ التي لم تجد الرصد والتغطية اللازمة إبان فترة الديمقراطية الثالثة - بل لعلّي لا ألقى القول جزافاً عندما أشير لعملية التعتيم المقصود الذي استهدف تلك الحقبة الهامة .

اعتمدت في سرد هذه المقالات على المعاشية في بعض الأحيان وعلى مقابلة عدد من الذين عاصروا بل وشاركوا في تلك الأحداث التاريخية ، وبعض المراجع والوثائق .

وتعود أهمية هذه الحلقات ورصدها في كتاب يعرضها لأول مرة لفترة لقيت الكثير من الإجحاف ، وذلك على الرغم من أهميتها ، ليس بالنسبة لكيان الأنصار فحسب بل لمسيرة العمل الوطني الشعبي السوداني .

لقد سعدت كثيراً بردود الفعل التي تمثلت في أسئلة عدد من القراء الذين تسنى لهم الاطلاع على تلك الحلقات ليفتحوا بذلك المجال لإمارة اللثام عن كثير من الموضوعات التي لم تجد حتى الآن الرد المباشر والشاق لها ، ولعلّي بهد الجهد المتواضع أكون قد أسهمت في تناول بعض المواضيع الحيوية ، آملاً أن تجد المزيد من التشريح الموضوعي حتى ننجلي الحقيقة ويتبين الحق من الباطل - وفي النهاية أرجو أن أقر بأن هذا السفر المتواضع عبارة عن مجموعة أفكار تحمل الانطباع العام لواقع عشتة واختزنته وسجلته في ذاكرتي وليست هي بالبحث الأكاديمي العلمي المعروف

خلفية تاريخية

إن الثورة الإسلامية التي فجرها الإمام محمد أحمد المهدي بن عبد الله في نهاية القرن الماضي وما حملته من مضمون إنساني شامل، بعد أن خاضت قيادتها أشرف المعارك ضد الحكم التركي لإقامة دولة إسلامية، كان ينبغي لها أن تتجاوز حدود السودان لتنتظم مختلف أرجاء العالم الإسلامي الذي ظل تحت قبضة الإمبراطورية العثمانية .

وذلك أن موقف الإمام المهدي المعروف من الثورة العربية في مصر يقدم الدليل القاطع على البعد القومي العربي الإسلامي الشامل الذي اتسمت به تلك الثورة، فقد أراد الإمام المهدي أن يفتدى الثائر العربي البطل أحمد عرابي بالجنرال غردون، من جهة أخرى فقد أبدى الإمام المهدي تعاطفاً كبيراً مع دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية وكاتب الشيخ السنوسي لنصرة الثورة والدعوة الإسلامية .

ولد الإمام محمد المهدي بن عبد الله في جزيرة الأشراف في منطقة دنقلا بشمال السودان من أسرة يمتد نسبها إلى الحسن السبط وقد عرف عنه منذ صغره النباهة والتعلق بالدراسة مما جعله يواصل ذلك الطريق تفضيلاً على صناعة المراكب التي كان يمارسها أهله، وقد قاده طريق العلم للتنقل بين مختلف الخلاوى الإسلامية في السودان، ولعل أسفاره المتعددة لهذا الغرض مكنت له من التعرف على أحوال السودان عامة على أيام حكم الأتراك وما يعانيه أهله من ظلم فآثر العزلة وأقام لنفسه غاراً في الجزيرة «أبا» للعبادة ثم بدأ نشر دعوته بمهديته والتكليف بمحاربة الأتراك الذين أفسدوا وأباحوا ما هو محظور في الإسلام .

المصادر التى بين أيدينا تقول أن الغالبية العظمى من السودانيين وقتها آمنوا بمهديته والتفوا حول دعوته وما جاء منها من تكليف بالجهاد لإقامة شرع الله، ولم يشذ عن إجماع الأمة إلا نفر قليل ممن لهم مصالح ارتبطت بحكم الأتراك آنذاك، وعموماً فظهور المهدي المنتظر لم يكن مستبعداً وقتها في السودان، فلقد ذكرت المصادر أن التنبؤ بظهور المهدي لإزالة المظالم عن أهله أصبح وشيكاً، وشكل ذلك التنبؤ جزءاً من الأدب الشعبي العام تناقله الصغار والكبار في جلساتهم ومجالس سمرهم، ومهما يكن من اختلاف في الأمر فقد كفى بعضهم بمقولة (كان مهدي مهدي وكان ما مهدي فحل رجال) وهكذا فقد استطاع الإمام المهدي بعبريته الفذة علماً وانضباطاً في السلوك أن يكون ملفتاً بين الرجال وأن يلهب حماسة السودانيين عموماً وأن يترجم شعارهم الذى رفعوه لمناهضة الأتراك (عشرة في تربة ولا ريال في طلبه) للتمرد على جباية الضرائب والعشور إلى مواجهة عسكرية إسلامية انتهت بزوال حكمهم عن السودان وإقامة دولة شرع الله فيه. لقد أيدته في ذلك النهج وفي تلك الثورة على المظالم العثمانية جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده في مجلتهما «العروة الوثقى» التى كانت تصدر باللغة العربية في باريس، ففي أكثر من عدد من تلك المجلة كتبنا يناصران جماعة الشيخ محمد أحمد كما كانوا يسمونه (في إشارة واضحة للإمام محمد أحمد المهدي).

كان نهج الإمام المهدي في كل تعاليمه التى وردت في منشوراته وفتاواه التى نقلها عنه السلف للخلف هو نهج كتاب الله وسنة رسوله، ولم يعرف عنه التشيع أو الدعوة لأى مذهب بعينه، فقد قيل عنه أنه قال عندما سئل عن رأيه في أئمة المذاهب السابقين (ما جاء في كتاب الله فوق رؤوسنا وما جاء من سنة على لسان نبيه محمد ﷺ فوق أكتافنا) أما أئمة المذاهب فهم رجال ونحن رجال ولكل مقام حال ولكل زمان رجال).

أخلص إلى القول أن الإمام المهدي وأنصاره إنما هم نماذج للأصالة السودانية التى أعجب بها الكثيرون، فهم أهل سنة ومع الجماعة المسلمة جمعتهم مبادئ وظروف شدة تحت رايات الثورة الأم فجاءوها من كل حذب

ونذب ومن كل الأعراق السودانية مهللين مكبرين بأن لا إله إلا الله محمد رسول الله، إلى آخر تلك الشعارات السامية، فانتظم تحت الراية الزرقاء بقيادة الخليفة عبد الله التعايشي كل أبناء غرب السودان، وتحت الراية الصفراء بقيادة خليفته على ودحليو كل أبناء النيلين الأبيض والأزرق وتحت الراية البيضاء بقيادته هو نفسه ثم الخليفة محمد شريف باقى أهل السودان الذين آمنوا بالدعوة، تحركت تلك الرايات فأسقطت الحكم الأجنبي عن السودان ودافعت عن الدولة يوم أن استباحتها قوات الاحتلال (المصرية - الإنكليزية) في سهل كررى وكانوا على الجانب الجنوبي من جبل سرقام وانقلبوا مهزومين أمام سلاح أشد فتكاً^(١) وأكثر ضراوة وإن فاقوه شجاعة وإقداماً. فكانوا الكاظمين الغيظ على مضض وخسرة شديدين.

عهد الإمام عبد الرحمن^(٢) :

أما وجه الأنصار المعاصر، فقد بعثه الإمام عبد الرحمن المهدي بعد العام ١٩٢٠ عندما فرض نفسه آنذاك على ممثلي دولتي الحكم الثنائي (مصر وبريطانيا) وسمحوا له بممارسة نشاط اقتصادي محدود لكسب العيش إثر المطاردة المتصلة بعد مذبحه الشكاية ١٨٩٩ والإقامة الجبرية في جزيرة الفيل بود مدني عاصمة الإقليم الأوسط، لم يكن الأمر بهذه البساطة فقد سجلت مراسلات دولتي الحكم الثنائي وحكامهم المحليين في السودان عدداً من التحفظات على فسخ المجال لأى نشاط أياً كان نوعه لأى من أبناء المهدي تحسباً من بث الروح في الدعوة الأنصارية الإسلامية المتطرفة كما وصفوها وشهدوها. إبان الثورة وحكم الدولة، ولعل سلاطين باشا اليهودي (التمساوي الجنسية) كان أكثر اشتغاطاً من غيره في رفض ذلك القرار لما عايشه معهم فترة خبسه في معسكراتهم على أيام الثورة، ولكن التناقضات والتوازنات بين دولتي الحكم الثنائي سمجت بالأمر أخيراً. ومن جهة أخرى أدرك الإمام عبد الرحمن

(١) راجع كتاب ونستون تشرشل (حرب النهر).

(٢) السودان للسودانيين (عبد الرحمن على طه).

بعد معركة الشكابة التي وقعت على شواطئ النيل الأزرق بأقل من عامين من معركة كررى والتي أصيب فيها إصابة مباشرة بالرصاص ورأى أمام عينيه التصفية الجسدية لأخويه الفاضل والبشرى وعمه الخليفة شريف الخليفة الثالث للمهدى رماً بالرصاص، أدرك أنهم يتعاملون ليس مع عدو تفوق عليهم بالسلاح كما حدث في كررى، بل إنهم يتعاملون مع قتلة متوحشين، لا يراعون العرف ولا القيم التي تسود بين المنتصر والمهزوم وأسرى الحرب، فقد قتلوهم غدرًا بتهمة التحرش بحكم دولتي الحكم الثنائي رغم علمهم المسبق بأنهم أناس مسالمون عزل من السلاح يفلحون الأرض للعيش الكريم، عليه فقد بدا واضحاً له أن قوات الاحتلال الإنكليزية - المصرية تريد تصفية كل من ارتبط اسمه بالإمام المهدى أو الثورة المهدية، لكن شاء قدره هو أن يفلت من تلك التصفية، لعل كل ذلك قد جال بخاطره عندما طلب منه بعض شيوخ الأنصار في الجزيرة «أبا» وهم بكامل السلاح أنهم يريدون الجهاد، فأجاب بنعم لكنه جهاد من نوع آخر تغيرت فيه الإستراتيجية ووسائل الصدام المباشر؛ لهذا عمد الإمام عبدالرحمن على تجميع الأنصار بعد أن تفرق القوم أيدي سباً بعد هزيمة معركة كررى فكان الاتصال الشخصي وعبر المندوبين والأصفياء والمقرين بكل من كان له عاطفة مع شعارات الثورة المهدية، وكان مكان اللقاء في الجزيرة أبا. فقد نفذ ذلك التجمع حركة التعمير التي خطط لها الإمام عبدالرحمن ونهاية الثلاثينات أتت تلك المجهودات أكلها، وبها اكتمل النصاب الاقتصادي والاجتماعي لبداية عمل سياسى مجيد رفع شعار (لا شيع ولا طوائف ولا أحزاب، ديننا الإسلام ووطننا السودان) .

السودان للسودانيين

وخلاصة القول فلقد كان للانضباط العمل والسلوكى شأن كبير في بروز الأنصار كقوة سياسية إلى السطح في عهد حكم دولتي الحكم الثنائي بعدما ظن الكثيرون نهايتها على وادي كررى ١٨٩٨ . وقد استقطب ذلك التوجه في نهاية المطاف كل الولايات الأنصارية المعروفة على الساحة السودانية وتعلباها

إلى كسب المحايدين والنافرين، وقد أبقى الإمام عبد الرحمن على شكل وقوة وانضباط الأنصار بعد أن عدل وأضاف إلى المنهج الجهادى الخالص، العمل السياسى الهام والمحاورة والمناظرة وقبول الرأى الآخر والتعامل بالانتخابات وقبول الهزيمة والنصر فيها بروح رياضية عالية ثم التحالف مع آخرين لتحقيق سياسات ما، ولا شك أن هذا هو أسلوب سياسى معاصر مكن جماعة الأنصار أن تعايش عصرها وتحقق الأهداف نفسها التى رفعتها الثورة المهدية ولكن بنهج آخر .

لقد كانت قوة الأنصار الاقتصادية والسياسية تحت قيادة الإمام عبد الرحمن دعماً لنشاط الحزبين فى الإصلاح الاجتماعى والتعليمى الذى بنوه فى السودان ، ودعماً سياسياً قوياً لمؤتمر الخريجين العام ١٩٣٨ ، حينما طلب فى مذكرة المؤتمر المشهورة فى عام ١٩٤٢ من دولتى الحكم الثنائى منح السودان 'استقلاله بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وما أن انشق مؤتمر الخريجين بعد ذلك التاريخ على نفسه بين مؤيد لدعوة الاستقلال التام للسودان عن دولتى الحكم الثنائى أو الاتحاد مع مصر، حتى أسس حزب الأمة عام ١٩٤٥ ليستوعب كل الجبهات الاستقلالية التى رفعت شعار «السودان للسودانيين» والذى تحقق فى ١٩٥٦/١/١ وبه استعاد السودان سيادته .

هذا من ناحية، أما الناحية الأخرى فقد ظل الإمام عبد الرحمن يرقب تحركات دولتى الحكم الثنائى وما يضمrane نحو مستقبل البلاد إلى أن حسم الأمر بقيام ثورة الضباط الأحرار فى ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢ والتى وافقت على مبدأ تقرير المصير للسودانيين، وقد نال السودان استقلاله فى ١٩٥٦/١/١ حينما انحاز البرلمان السودانى المنتخب بالإجماع إلى راية الاستقلال^(١) .

(١) راجع كتاب السودان للسودانيين : عبد الرحمن على طه .

أحداث الجزيرة «أبا»

جاء انقلاب مايو في صبيحة ٢٥ أيار (مايو) ١٩٦٩ وقد صادف ذلك وجود الإمام الهادي المهدي في الجزيرة أبا الصامدة أثناء تلك الزيارات الدورية التي كان يقوم بها بين الفينة والأخرى. وكنت أنا موجوداً في منزل الأسرة بحي ودنوباي بمدينة أم درمان، وكان شقيقى نصر الدين الهادي نائب رئيس حزب الأمة الحالى يدرس في مدرسة أم درمان الأهلية العليا. أما شقيقى الأكبر المرحوم الفاضل فقد كان بحوار والده في الجزيرة أبا.

وقبل ذلك كانت الحياة تسير بصورة عادية حيث يتوافد الأنصار بأعداد هائلة إلى دار الإمام بأمر درمان كما جرت العادة، وإن كان عدم وجود الإمام الهادي بالعاصمة قد قلل من أعداد المصلين حينما كانوا يتوافدون بأعداد ملحوظة لتأدية شعائر الصلاة من خلف الإمام الهادي ليتجمعوا بعد ذلك وهم يرددون أناشيدهم الدينية التي تؤكد التزامهم بالعهد والبيعة التي قطعوها للإمام.

كان منظر الأنصار وهم يرتدون ثيابهم الناصعة البياض ويصطفون بنظام وهم يحملون الأعلام، والعمامة البيضاء تشع من رؤوسهم المرفوعة في تحد وكبرياء وشموخ نبيل بعد أن وضعوا على أكتافهم شارة الأنصار المعروفة بألوانها البراقة الأصفر والأحمر والأسود ليهتفوا في مهادج وإيمان عظيم بأناشيد الثورة والفداء وعلى رأسهم شيخ وقور وقد ارتفع صوته عالياً وهو يقول :

إلى الأمام إلى الأمام يا شباب الإمام

هذا الإمام قد سما زخم النجوم في السما
وإن يقل خوضوا الدما نفعل ونحن إنما
جنوده وقت الصدام

ويردد بعده الحاضرون النداء نفسه فيقطع ذلك هتافات الله أكبر والله
الحمد بنبرات حادة وقوية تتجاوب معها الافاق لتحكي ملحمة من ملاحم
الفداء والتضحية ونكران الذات حين تتخلص تلك الأجساد النقية الطاهرة من
كل ما يربطها بذلك العالم المادى لتنتقل في رحاب سرمدى خالد يشهد على
وحدانية الله وقدرته .

كانت تلك الصور الرائعة تنطبع في ذاكرتى وأنا صغير أراقب في غبطة
حقيقية وأسرع بخطى حثيثة للحاق بذلك الموكب المهيب الذى كان ينتهى بنهاية
صلاة الجمعة ليعود من هنالك إلى دار الإمام لتناول طعام الغداء معه، ويبدأ
الحوار المفتوح بين الإمام والأنصار يلتقى فيه بكل تلك الوفود ويستمع إلى
مشاكلهم فى اتصال يقف من خلاله على كافة مشاكلهم ويبادر بالتوجيه لوضع
الحلول الناجمة .

كانت تلك المشاهد بمثابة برلمان مصغر يتكرر كل أسبوع وكنت ألاحظ
برغم صغر سنى تشوق واستعداد والذى الراحل إلى تلك اللقاءات التى كانت
تذكى ذلك التراث وتؤدى إلى تقوية واثق الإخاء القائم على المحبة والعقيدة
الإسلامية من دون أغراض شخصية أو مطالب دنيوية. وكان ذلك هو السر
الكبير خلف تماسك وصلابة هذا الكيان الجهادى عبر السنوات الطوال .

تفاصيل معركة أبا :

٢٤ مايو ١٩٦٩ .

الحياة تسير هادئة ، فلا سحب أو غيوم تنذر بدنو عاصفة .. ولكنه كان
هدوء ما قبل العاصفة .

مجموعة من الجنود لا تزيد عن ٢٥٠ فرداً تتحرك فى هدوء مستترة

بالظلام . لتقوم برؤد النظام الديمقراطي في صبيحة الخامس والعشرين من مايو المشؤوم وبلا مجهود أو مقاومة تذكر استولى أولئك نفر على السلطة وفي ساعات معدودات ..

أين القادة ؟

الإمام الهادى ، كان بالجزيرة أبا والتى وصلها على متن طائرته الخاصة في الثالث والعشرين من مايو ١٩٦٩ .

الصادق المهدي ، كان بالعاصمة واتجه بعد الانقلاب مباشرة إلى الجزيرة أبا للتنسيق مع عمه الإمام الهادى .

السيد إسماعيل الأزهرى رئيس مجلس السيادة ، كان موجوداً بالعاصمة ، واعتقل بسجن كوبر ، الشيخ محمد محمد الصادق الكارورى غادر الخرطوم فوراً وانضم إلى الإمام الهادى بالجزيرة أبا ممثلاً لجهة الميثاق .

لقد لعبت الظروف وسوء التقدير واللامبالاة دوراً كبيراً في إنجاح الانقلاب دون مقاومة تذكر فكل الشواهد كانت تنذر بقدم عاصفة هوجاء .. في مارس ١٩٦٩ ترددت معلومات بأن الرائد أبو القاسم محمد إبراهيم ، وزين العابدين محمد أحمد عبد القادر يخططان لمحاولة انقلابية واستبعد المحققون ذلك وقالوا أن الضابطين من « المنعمين المرفهين » .. ولا يوجد احتمال لمشاركتهما في أمر مثل هذا .

وتجدر الإشارة إلى أن السيد الصادق ابن أخى الإمام كان قد غادر الجزيرة أبا في وقت مبكر من تلك المجزرة البشعة للدخول في حوار مع النظام بالعاصمة وذلك على ضوء نصيحة بعض المقربين له علماً بأن الإمام الهادى كان قد حذر من مغبة الدخول في ذلك ؛ وذلك تحسباً لغدر نظام التمرى ولكن السيد الصادق فضل الذهاب للاجتماع بالانقلابيين فحدث ما توقعه الإمام حيث تم اعتقاله ونقله إلى حامية شندى بالإقليم الشمالى ..

الجزيرة أبا :

كانت الجزيرة أبا كخلية نحل تموج بعشرات الألوف من الأنصار، ومن الصعب تحديد أو تقدير أعداد الذين حضروا من أنحاء السودان بصورة دقيقة فلقد كانت الجزيرة تستقبل الآلاف منهم كل يوم. قسم منهم كان يلتقى بالإمام الهادى لتجديد البيعة لحفيد المهدي وللمعرفة آخر تطورات الموقف، ثم يعودون إلى قراهم القريبة من الجزيرة مرة أخرى. وهناك قسم آخر وفد من مناطق بعيدة نائية بعد أن أحسوا بالخطر. وأهمية وجودهم حول الإمام.. هؤلاء لم يكن أمامهم من سبيل غير الاستقرار بصورة دائمة بالجزيرة أبا.. ويقدر العلميون بالأمور. أن أعداد هؤلاء تراوحت بين ٤٠ ألفاً و ٧٠ ألفاً. ولقد قارب عدد من حضروا للصلاة خلف الإمام في أول عيد فطر بعد الانقلاب ربع مليون أنصارى.

التسليح :

لقد كان تسليح الأنصار وتنظيمهم عام ١٩٧٠ هو نفس تسليحهم عام ١٨٩٨، جراب وسيف وبعض السلاح الناري العتيق. هذا بالإضافة إلى مجموعة الأسلحة الخاصة بالإمام المهدي.. وتتكون من: رشاشين «بور سعيد» تلقاها الإمام هدية من مصر، ثلاثة رشاشات «برتا» ورثها من الإمام عبد الرحمن، بندقيتين مورييس، خمس بنادق رصاص (٣٠٣، ٣٧٥، ٤٠٤) للصيد، بندقيتين خرطوش عيار (١٠٢).

كان هذا هو كل السلاح الموجود بالجزيرة أبا وهو بلا شك غير مناسب أو صالح لمواجهة قوات الحكومة بمدرعاتها ونفائتها..

بعد أن وصلت الأنباء إلى الجزيرة أبا باعتقال السيد الصادق المهدي، بدا الأنصار أكثر حلاً وتوقعاً لغدر الحكومة.. وبتوجيه من الإمام الهادى أقامت قوات الأنصار نقاط مراقبة، وتفتيش وحراسة عند مداخل الجزيرة بمنطقتي طيبة والجاسر، ومنع دخول المشتبه فيهم منعاً باتاً للجزيرة. وفي هذا الجو المتوتر، جاء شهر رمضان المبارك.. ومع إطلالة أول يوم

فيه أطل على الجزيرة زائر جديد . ففى الثامنة صباحاً حضر إلى الجزيرة أبا ملاحظ مركز شرطة مدينة كوستى ، حاملاً رسالة للإمام يخطر فيه بأن الرائد فاروق حمد الله وزير الداخلية قد وصل إلى مدينة ربك ، ويطلب مقابلته بالجزيرة أبا للتباحث . وقال ملاحظ الشرطة أن الرائد أبو القاسم محمد إبراهيم سيكون ضمن الوفد الذى لم تصحبه أى قوات . وفى الحال أصدر الإمام الهادى أوامره للواء أحمد عبد الله حامد بالذهاب إلى ربك لمرافقة الوفد عند دخوله إلى الجزيرة . وأصدر أوامره أيضاً بمنع أى تجمعات استفزازية أو حمل السلاح أثناء الزيارة ، فلقد وجد الإمام أنه من غير اللائق مقابلة ضيوف عزل بقوات تحمل السلاح .

تنفيذاً لهذه الأوامر جميعاً ، تحولت الجزيرة فى دقائق معدودات إلى شبه جزيرة مهجورة ، توارى الآلاف من ساكنيها تنفيذاً للأوامر .

وصل اللواء (م) أحمد عبد الله - منسوب الإمام - إلى ربك والتقى هناك بالرائد فاروق والوفد المرافق له والذى كان يضم أيضاً الرائد أبو القاسم محمد إبراهيم . وعندما تحدث معهم علم أن أبو القاسم متمسك بضرورة دخول الوفد إلى الجزيرة على رأس قوة مدرعة ، حاول اللواء أحمد عبد الله إقناعه بعدم جدوى ذلك ، انفع أبو القاسم ووجه الحديث إلى اللواء أحمد عبد الله قائلاً :

لازم مدرعات ، دى لعبتها كده .. وإن كنتم عايزين تولعوها مستعدين نولعها نار ..

وعقب ذلك عادت العربة المقلدة للواء أحمد عبد الله بقيادة سائقها إلى الجزيرة أبا ، حاملة الأنباء ، بأن الوفد الحكومى أبدى تمسكه بالدخول إلى الجزيرة على رأس قوة عسكرية ، فأصدر الإمام أوامره فوراً بعودة القوات التى كانت قد صدرت لها الأوامر من قبل بالتجمع فى ثكناتها ، وأمر بتشديد الحراسات على منافذ الجزيرة ومخارجها .. فتحولت الجزيرة فى لحظة إلى معسكر يموج بالحركة ، سلاح يوزع ، جنود يستلقون خلف السواتر ، آخرون يصرون

الأوامر، توزع القناصة من حملة البنادق على أسوار سراية الإمام وعند مداخلها، مجموعات أخرى مجهزة بقنابل حارقة «مليتوف» اصطفت أمام المباني المواجهة للسراى مباشرة .. وفجأة .

هدر صوت عال، ورفع كل من كان حينها بالجزيرة عينيه إلى السماء، تشكيلات من الطائرات السكاي هوك النفاثة تحلق فوق سماء الجزيرة، وفيما أهل الجزيرة يتابعون بأبصارهم تلك الطائرات، وصلت إلى مشارف الجزيرة قافلة الوفد الحكومى، مدرعة في المقدمة، عربية (استيشن)، على جانبيها مدرعتان .. وفي المؤخرة ثلاث عربات محملة بالجنود المدججين بالسلاح .. تقدمت القافلة إلى وسط الجزيرة، مثيرة حولها عاصفة من الغبار والدخان والضجيج، الناس تجمعوا على جانبي الطريق، ينظرون في هدوء ..

وعند السراية توقفت المدرعة، دون أن تبطل ماكينتها، وتبعها في ذلك بقية الرتل .. لحظات قليلة، هدرت مدرعة المقدمة، وتحركت في بطء غرباً في اتجاه السوق، لتتوقف بجوار السور الشمالى الغربى للسراى موجهة مدفعها (٧٦م) في وضع الاستعداد تجاه السوق .. ثم سكنت حركتها في وضع الاستعداد هكذا .

تحركت الثانية نحو مدخل السراى الشمالى، ووجهت مدفعها نحو الشارع، وتوقفت بالقرب منها السيارة (الاستيشن) الحاملة للوفد الحكومى . وبمحاذاة السور الشمالى الشرقى توقفت المدرعة الثالثة لتوجه مدفعها إلى داخل السراى .

وفي مواجهة الباب الشمالى اصطففت ناقلات الجنود الثلاث ..

كانت الساعة حينها قد شارفت العاشرة صباحاً .. فتح باب الاستيشن، وبدأ أفراد الوفد فى الهبوط منه، واحداً، واحداً .. وعندما هبطوا جميعاً كانت قد التفت حولهم دائرة متماسكة من شباب الأنصار، حماية من أى اعتداء ..

وتحرك الوفد نحو البوابة الرئيسية للسراى .. أمتار قليلة، توقف فاروق حمدنا الله، وتبعه في ذلك بقية أعضاء الوفد .. ثم توجه بالحديث لقائد قوة الحراسة مصدراً إليه الأوامر بعدم الرد على الأنصار مهما حدث .. وعلم القيام بأى عمل استفزازى، أو التحرش بالأنصار . ولم يصدر أى تعليق من أبو القاسم محمد إبراهيم ..

ثم استأنف الوفد الحكومى تقدمه محاطاً بدائرة من شباب الأنصار، أمتار قليلة ويصلون إلى غرفة الاجتماع، بالجناح الجنوبي من السراى .. الوفد يتقدم في هدوء ..

فجأة .

اخترق دائرة الحصار، في سرعة عاصفة أنصارى يحمل حربة، ووقف أمام الرائد فاروق حمدنا الله موجهاً الحربة نحو صدره، قاب قوسين أو أدنى من قلب الوزير ..

تسمر الجميع .

كأنهم تماثيل شمع، يحملون في الحربة، والرجل والوزير .. أية حركة، تعنى الموت .. قدم الرجل حربه أكثر من صدر الوزير، وقال في انفعال وغضب واضح:

خلل الله من عادى الإمام ..

فرد فاروق حمدنا الله في الحال . وفي هدوء شديد: هو من الى بيعادى الإمام؟، نحن ضيوف الإمام!

وبعد أن التقت العينان في نظرة طويلة، ابتعد النصل الفضى عن قلب الوزير، وعادت الدماء تجري في عروق من شاهدوا الحادث، بعد أن تجمدت للحظات . لقد واجه فاروق حمدنا الله الموت حقيقة خلال هذه اللحظات التى مرت علينا كالدمر، ولكنه كان أثبت ما يكون الرجال .. ولولا هذا الثبات ما استطاع الرد على الأنصارى ..

أما مرافقوه .. فحدث ولا حرج .. بعد ذلك واصل الوفد طريقه إلى قاعة الاجتماعات، فيما كانت الطائرات تحلق هادرة على ارتفاع منخفض جداً فوق السراى .

أما خارج السراى :

فلقد صدرت الأوامر للسيارات الثقيلة بدائرة المهدي بالتحرك إلى الشارع الموازي لسراى الإمام وسد الطريق أمام مدرعات الحكومة وخلفها لمنعها من التحرك، وبذلك فقدت المدرعات أهم مميزاتها القتالية وهى الحركة والقدرة على الانتشار الواسع .

وتم تشكيل مجموعة حراسة بقيادة المرحوم محمد على يونس الحرس الخاص للإمام الهادى لتأمين غرفة الاجتماعات من الداخل والخارج .

وهكذا أصبح الوفد رهينة داخل عرين الأسد، يحيط به أبطال الأنصار من كل جانب. وبدأ الاجتماع .

من جانب الإمام الهادى .. كان هناك اللواء (م) أحمد عبد الله حامد، والسيد عبد الرحمن محبوب والسيد الفاضل محمد بشير سكرتر الإمام، والذي قام بتدوين محضر الاجتماع، والعمدة شرف الدين عمدة الجزيرة أبا .

ومن جانب الحكومة كان هناك السادة / فاروق عثمان حمدنا الله، أبو القاسم محمد إبراهيم، يوسف أحمد يوسف، وضابط مباحث كوستى إبراهيم عبد الكريم .

وكان للجانبين مطالبهما ..

تحدث الوفد الحكومى أولاً: وطالب بضرورة إنشاء نقطة للشرطة بالجزيرة أبا حفاظاً على الأمن، واعترض ممثلو الإمام وقالوا أن الجزيرة أبا ليست فى حاجة إلى نقطة شرطة، فالأمن بها مستتب، ولم تشهد أبداً طوال تاريخها جريمة قتل أو ما يعكر صفو الأمن .. وأن جميع الخلافات التى تنشأ داخلها تحل ودياً دون تدخل من السلطة. وأن العمدة شرف الدين عمدة

الجزيرة قادر وحده على القيام بواجباته دون مساعدة من رجال الشرطة .
ولم يرض أبو القاسم بذلك الرد ، وقبله على مضض موجهاً التهديد للعمدة
شرف الدين بأنه (سيلقى عقوبة صارمة) إذا ما حدثت أى مخالفة أمنية أو
جريمة قتل .. أثار هذا الحديث غضب الإمام ، وتوتر الجو ، واحتد الطرفان في
الحديث .. ولولا تدخل فاروق حمدنا الله وهدئته للموقف .. لكان قد انهار
الاجتماع .. فلقد أعلن عن قبوله رأى الإمام عن عدم حاجة الجزيرة لنقطة
شرطة في الوقت الراهن ، وفي تلك الظروف بصفة خاصة .

بعد ذلك جاءت مطالب الإمام في ست نقاط :

- ١ - إزالة الواجهة الشيوعية للنظام .
- ٢ - الإفراج عن الصادق المهدي أو تقديمه للمحاكمة لمواجهة التهم الموجهة
ضده ، إذا كانت هناك تهم .
- ٣ - الإفراج عن كل المعتقلين السياسيين أو تقديمهم للمحاكمة .
- ٤ - إعادة الحياة النيابية وإجراء استفتاء عام على مسودة الدستور الإسلامى .
- ٥ - عودة الجيش إلى ثكناته .
- ٦ - منع التدخل الأجنبى .

تسلم فاروق تلك المطالب و وعد بدراستها مع بقية أعضاء الحكومة ..
وانتهى الاجتماع بوعده من فاروق حمدنا الله أن يتلقى الإمام الرد في أقرب وقت .
وبمجرد خروج الوفد من قاعة الاجتماع ، سمع صوت دوى عيارات
نارية .. فتحفز الأنصار ، وتحفز جنود الحكومة .. وساد التوتر داخل السراى
وخارجها .. وقال البعض : الله أكبر ، لقد بدأت المعركة ..

في سرعة فائقة تحرك رجال الإمام لمعرفة مصدر الطلقات النارية فاكتشفوا
أنها صادرة من بندقية أحد الأنصار (محمد دريج) الذى أطلق رصاصاته ابتهاجاً
بنجاح المفاوضات .

ولكن الموقف لم ينته بمعرفة ذلك، فمثلما سمع صوت الطلقات الذين كانوا بالقصر في تلك اللحظة.. فقد سمعها أيضاً رجال الأمن المنتشرون حول السراى، وسارت الشائعات بينهم. إنها (إشارة بدء المعركة).. وسمع من كانوا بالسراى أصوات (الله أكبر.. والله الحمد).. تأتيهم من خارجها.. فما كان من ابن الإمام الشهيد السيد الفاضل الهادى المهدي وسعد عباس توفيق ابن خالة الإمام.. إلا أن استقلا إحدى سيارات اللاندروفر التي كانت موجودة بالسراى.. وخرجوا لإبلاغ رجال الإمام بحقيقة الموقف.. وتم تأمين خروج الوفد الزائر.

أيام قليلة مرت بعد ذلك، وفيما أهل الجزيرة وقيادتها في انتظار رد الحكومة على المطالب التي حملها فاروق حمدنا الله.. وصلت الأنباء بأن الحكومة قد أصدرت قراراً بتأمين محلج ربك، ومعصرة الزيوت بها وهي إحدى أملاك دائرة المهدي.. وصدرت الأوامر أيضاً بتعزيز حامية ربك، وحامية كوستي^(*).. وإقامة حامية جديدة عند بلدة (المرايع) الصغير التي تقع على بعد عشرة كيلومترات شمال الجزيرة أبا، وحامية أخرى عند بلدة (الطويلة) التي تواجه الجزيرة أبا من الضفة الغربية.. وأصبح عادياً أن يرى أهل الجزيرة طائرات سلاح الطيران تحلق يومياً وعلى ارتفاع منخفض فوق سماء الجزيرة أبا.

في أواخر فبراير ١٩٧٠ كان قد اكتمل وصول السلاح الذي بعث به السيد الشريف حسين الهندي إلى الجزيرة أبا، والذي وصل إليها في تكتم شديد. ووسط إجراءات تأمينية مكثفة خوفاً من أن يصل خبر ذلك السلاح إلى الحكومة التي بدأت تبث عيونها وترهف أسماعها على امتداد الحدود السودانية - الأثيوبية، وداخل معازل الأنصار بالنيل الأبيض، وعلى رأسها الجزيرة أبا المقر الرئيسي للإمام الهادى المهدي، ومعقل الثورة ضد الانقلاب.

السلاح في أغلبه كان جديداً ولم تقع على مثله عيون الأنصار من قبل، الذين لم يروا غير قطع قليلة من بنادق قديمة ومتهاكة، ولم يتقنوا في حياتهم غير استخدام السلاح الأبيض بمختلف أنواعه.. والذي برعوا في استخدامه،

(*) راجع كتاب مواقف على دزب الزمان (الجزء: الثاني) عقيد محبوب بدير محمد نور ص ٤١١.

والتفاخر بالمهارة فيه .. فمنهم من لا يظاهرون في حمل السيف واللعب به .. ومنهم من برع في استخدام الحربة، إلى درجة الاحتراف في استخدامها .
أما هذا السلاح الجديد، ذو الأسماء الغريبة، التي يصعب نطقها، فهم لم يروه من قبل بل ولم يسمعوها به .. (٧٩٠) بندقية من ماركة (لى أنفلد ٣٠٣) (٣٥٠) قطعة من رشاشات مختلفة منها (برتا) و (ستيرلنج) و (F.A) التشيكى الصنع . (١٢٠) قطعة من الرشاشين (برن) و (براون) المضادين للطائرات . إلى جانب ذلك هناك (١٢) قاذفة خارقة للدروع .. نصفها (بازوكا) والنصف الآخر (آر. ئى. جى) وقنابل يدوية ومسدسات ضخمة، وجهاز للتفجير من البعد و ٤٠ ألف طلقة مختلفة .

من يعرفون استخدام تلك الأسلحة يعلنون على الأصابع .. معظمهم من جماعة الإخوان المسلمين الذين تلقوا في وقت سابق تدريباً مكثفاً على استخدام السلاح الناري الحديث، بمعسكرات خاصة داخل الأراضي الأثيوبية .

وقد كان عدد من قياداتهم يوجد بجوار الإمام بالجزيرة أبا في تلك الظروف القاسية أمثال الشهيد محمد صالح عمر ، الشيخ محمد محمد الصادق الكارورى ، مهدى إبراهيم ، بابكر العوض عبدالله ، عز الدين الشيخ فضل وعبد المطلب بابكر خوجلى .

ولم يكن هناك من حل بعد أن وصل السلاح، غير عقد دورة تدريب مكثفة لمقاتلى الأنصار ليقفوا من خلال المحاضرات والدروس النظرية والعملية، على طرق التعامل مع تلك الأسلحة، فكَّها وتركيبها، ومدى ومعدل نيرانها، وأساليب الضرب المتقطع، والسريع، والضرب بالتوجيه أو التنشين .. وإلى غير ذلك من أساليب التعامل مع الأسلحة النارية، وذلك بعد أن كتب عليهم القتال وظهرت للعيان حقيقة تأمر النظام المايوى الملحد .

كان التدريب النظرى يتم داخل إحدى قاعات سراى الإمام، حيث قسم مقاتلو الأنصار إلى مجموعات تعليمية عديدة كل مجموعة تضم عشرة أفراد . أما التدريب العملى على ضرب النار، فقد بدأ بتمارين عيفة وتدريبات

الضبط والربط والبيادة . أما التدريب على الذخيرة الحية ، فلقد تم داخل خندق بمنطقة طيه ، كان عمقه ثلاثة أمتار وطوله خمسين متراً . ومزود بمولد كهربائي لإضاءة الخندق ليلاً حتى يتيح للمتدربين وقتاً أطول لممارسة فنون القتال ، واكتساب المهارات المطلوبة في أقصر مدة زمنية ممكنة . فالأحداث وفقاً لتقييم القيادة كانت تتداعى سريعاً ، والمعركة قد تأتى في أية لحظة .

وبعد اكتمال التدريب لم يكن أمام القيادة غير الانتظار فخطه الإمام الهادي كانت في جوهرها دفاعية لا هجومية ، تتلخص في انتظار الضربة الأولى ثم الرد عليها .. والصمود لمدة ثلاثة أيام في مواجهة قوات الحكومة . وفي هذه الأثناء -ووفقاً لما وصل إليه الإمام من تقييم للموقف استناداً لما وصله من معلومات- ستتحرك معظم قوات الحكومة من الخرطوم نحو الجزيرة أبا ، مما يتيح الفرصة لقوات الأنصار وقوات الجيش المناوئة للنظام الجديد من الاستيلاء على السلطة . وكان الإمام يرى أيضاً أن الأيام الثلاثة ستكون كافية من أجل إبلاغ قوات الأنصار بغرب السودان بأوامر القتال إذا دعا الأمر .

كانت تلك هي خطة الإمام . التحصن داخل الجزيرة أبا ، وتلقى الضربة الأولى .. ثم الصمود في مواجهة الحكومة لمدة ثلاثة أيام يتمكن خلالها المؤيدون داخل الجيش وخارجه من التنظيم والتجمع والاستيلاء على السلطة .

ولقد أخطأ من اعتقلوا أن الإمام ومجلس قيادته قد وضعوا خططهم للقضاء على النظام الانقلابي عبر معركة تلور رحاها بالجزيرة أبا التي تبعد ٢٥٠ كيلومتراً من الخرطوم ، عاصمة السودان ، ومركز السلطة واتخاذ القرار . إن معركة الجزيرة أبا ، إن كان لابد منها لم تكن في تخطيط الإمام وهيئة قيادته ، غير فتيل الاشتعال الأول لتفجير المعركة الشاملة ضد النظام الانقلابي الماركسي .

لقد أثبت مجرى الأحداث فيما بعد دقة تقدير الإمام لموقفه وقدرات جنوده .. ولولا ضعف المعلومات التي اعتمد عليها في وضع خطة المعركة .. لتغيرت النتيجة ، بل ولتغير وجه التاريخ في السودان . لقد كان الإمام على علم

تام بأن المعركة ستكون نتيجتها لصالح قوات الحكومة، فمسرحتها أرض مكشوفة بلا جبال وعرة أو غابات كثيفة تساعد قوات الأنصار على الصمود أو الدفاع عن أنفسهم، في مواجهة قوات مزودة بأحدث الأسلحة من دبابات ومدفعية ثقيلة وطائرات مقاتلة. ولذلك فلقد قدر الإمام إمكانيات جنوده على الصمود بثلاثة أيام فقط.. ورغم فشل الخطة.. إلا أن الأنصار قلوبوا الهجمات وردوها.. واستبسوا في الدفاع عن الجزيرة لمدة خمسة أيام، ولولا الأوامر التي أصدرها الإمام بتسليم الجزيرة أبا حقناً للدماء.. لما دخلتها قوات الحكومة إلا على أجساد جميع من كانوا فيها - في ذلك الوقت من الأنصار - ولكنها كانت لإرادة الإمام الذي أمر بالتسليم حقناً للدماء.

تنفيذاً لأوامر الإمام الهادي المهدي امتنع الأنصار عن القيام بأي عمل هجومي، انتظاراً للضربة الأولى.. التي ستكون ساعة الصفر ينتشر بعدها مقاتلو الأنصار لحماية الجزيرة، ومنع قوات الحكومة من دخولها لمدة ثلاثة أيام.. يعم خلالها حسم الأمر بالخرطوم.

وكان لابد من الانتظار، والانتظار في هذه الحالة ليس لهواً، أو تضيقاً للوقت.. وإنما هو عمل جاد أيضاً.. دراسة لاحتمالات الهجوم المرتقب، ووسائله.

استبعد معظم القادة أن يأتي الهجوم ليلاً وذلك لعدة أسباب وضعوها في الاعتبار، منها خطورة الهجوم المدرع ليلاً ضد أهداف غير محددة، وغير ثابتة كما هو الوضع في الجزيرة، وضعف التدريب على القتال الليلي بسلاح المدرعات آنذاك وافتقار سلاح المدرعات لأجهزة الرؤية الليلية، ثم شدة انحدار الأراضي ولزوجتها مما يعوق سرعة اقتحام الجزيرة ليلاً.

ولهذا تم استبعاد هذا الاحتمال، وأن يبقى احتمال آخر وهو الأقوى.. ويتمثل في هجوم برمائي تشنه قوات الحكومة على الجزيرة من الناحية الغربية، وذلك في الساعات الأولى من الفجر مستغلة ما تبقى من ظلام الليل كساتر يحميها حتى الوصول إلى شاطئ الجزيرة، ومع بزوغ أول شعاع من ضوء

الصباح يمكنها من تخطى العقبات الطبيعية تفتح تلك القوات نيرانها وتشق طريقها إلى داخل الجزيرة .

المهجوم المظلي كان أحد الاحتمالات التي وضعها في الاعتبار قادة الأنصار في ذلك الوقت وتوقعوا في هذه الحالة أن يتم الإنزال في شمال الجزيرة حيث الأرض مكشوفة وخالية من أية تجمعات سكنية أو قرى . ثم تتقدم هذه القوات إلى وسط الجزيرة تحت لغطاء كثيف من المدفعية بعيدة المدى والقصف الجوي .

تحسباً لكل هذه الاحتمالات .. صدرت الأوامر لقوات الأنصار باليقظة التامة ليلاً في مواقعهم بأطراف الجزيرة .. وحفرت الخنادق وأعدت منصات الاطلاق المدفعية في المنطقة الشمالية، وتم بناء بعض القرى الوهمية في المناطق المرشحة للإنزال الجوي وزادت أطواف المراقبة الرصد ليلاً خارج الجزيرة تحسباً لأي هجوم مفاجيء .

زيارة نميري

وفيما وصلت الأمور إلى نقطة التوتر، حملت أجهزة الإعلام أنباء عن عزم نميري زيارة مناطق الأنصار بالنيل الأبيض، فزادت الأوضاع توتراً على ما كانت عليه ..

أولاً: رفض الإمام الزيارة .. مبرراً رفضه بأن الإخطار جاء بصورة استفزازية فلقد أعلن النظام عن الزيارة وحدد خط سيرها دون أن يتشاور في ذلك مع المعنيين بالأمر . مع علمهم بردود الفعل التي قد تنجم من مثل تلك الزيارة في مناطق الأنصار .

ثانياً: كانت كل جسور الثقة بين الإمام والنظام قد تدمرت حينها وذلك لقيام النظام باعتقال السيد الصادق المهدي ابن أخي الإمام الذي ذهب إلى الخرطوم مفاوضاً فتم اعتقاله رغم العهد الذي قطعه قادة النظام للسادة إسماعيل عبد الله الفاضل والفتاح عبدون والأمير نقد الله ، هنا إلى جانب تحالف النظام مع الشيوعيين ..

ومع رفض الإمام للزيارة الذي أبداه علانية .. أعلن نميري لإصراره وتمسكه بزيارة المنطقة .. فازدادت حدة التوتر، وانحبست الأنفاس ترقباً لما ستسفر عنه المجابهة فالصدام أصبح وشيكاً لا محالة ..

وفي هذا يقول الأستاذ سعد عباس توفيق ابن خالة الإمام الهادي الذي عاش تلك اللحظات . «لقد أصبحنا نعيش مشهد الفرصة الأخيرة ليس أمامنا إلا عبور النهر لنلتقط الأنفاس على روابي الضفة الأخرى . أو لتحتطم على صخور المنحدر .. تتناثر أشلاء تنقش بمداد التاريخ حروف المأساة ..

لقد بات الخيار أمامنا جلياً إما أن نكون .. أو لا نكون . فلن نتوسد تابوت التاريخ في سكون وصمت .. تحركت الباخرة المقلدة لنميري والوفد المرافق له ووصلت إلى الدويم، وهناك واجه نميري أسوأ استقبال يمكن أن يلقاه حاكم .. الجماهير محتشدة تردد الشعارات المناوئة لنظامه والشاجبة للتدخل الأجنبي .. المطالبة بتطبيق شرع الله .

وتكرر المشهد في أم جر، وحتى يجد (نميري) ذريعة للانسحاب من المنطقة وعدم إكمال الزيارة تم لإخراج مسرحية هجوم أحد الأنصار على نميري في محاولة لطمعه !!!

وانسحب نميري ووفده عائداً إلى الخرطوم من طريق كوستي وفي مساء نفس اليوم الأربعاء الخامس والعشرين من مارس ١٩٧٠ مرت الباخرة المقلدة لنميري بمحاذاة الجزيرة أبا، فارتفعت الأصوات مرددة هتافات الأنصار وشعاراتهم، وأطلقت عناصر من قوات الأنصار وأهالي الجزيرة نيران البنادق في الهواء .. لقد مرت باخرة نميري بمحاذاة الجزيرة، وفي مدى نيران أسلحتها ولو أرادوا تدميرها لفعّلوا .. ولكن شخصية الإمام المؤمن المسلم كانت تمنعه من إتيان فعل مثل ذلك .. ولكن نميري عاد غاضباً وأصبحت الحرب أقرب من جبل الوريد » .

ويقول الأستاذ سعد:

صباح الخميس ٢٦ مارس ١٩٧٠ حوالي الساعة التاسعة والنصف صباحاً

وأثناء وجودى بالقرب من (طيبة) التى تبعد حوالى ٢٨ كيلومتراً من وسط الجزيرة ومعبر الجاسر.. تلقيت عبر جهاز اللاسلكى رسالة من نقطة الرصد خارج الجزيرة بأن قوة ضخمة فى طريقها إلى الجزيرة ..

فى التاسعة و ٤٥ دقيقة، بدأت القوة المدرعة فى التقدم إلى داخل الجزيرة عبر الجاسر، وهو عبارة عن جسر ترائى طوله حوالى ألف و ٥٠٠ متر بعرض ١٠ أمتار.. ردم به الأنصار الفرع الشرقى من النهر لتسهيل دخول الزوار إلى الجزيرة ..

وكان الخطأ التكتيكى المميت الذى وقع فيه ضابط أركان القوة هو عدم إرساله لقوة استطلاع تسبق القوة الرئيسية منعاً لأى مفاجأة ..

تقدم الطابور المدرع عبر الجسر وقبل أن تعبره المدرعة الأولى إلى الأرض الفسيحة داخل الجزيرة فوجئ قائدها بموانع من القضبان الحديدية، وجنوع الأشجار وكتل الأسمنت تمنعها من الاستمرار فى مسيرتها فتوقفت المدرعة ومن خلفها بقية القوة .. وفى سرعة شبه أسطورية قام الأنصار بكسر الجسر خلف القوة لمنعها من التقهقر .. فوجدت نفسها محجوزة داخل (كسارة بندق) وفقاً للاصطلاح العسكرى، الموانع أمامها والجسر مكسور خلفها والمياه تحيط بها من الجانبين ..

وهكذا نلاحظ أنه وفى لحظات فقدت القوة المدرعة كل قدرتها القتالية وتحولت إلى قبور ثابتة لمن هم بداخلها وخرج آلاف الأنصار وأحاطوا بالقوة المدرعة المكونة من ٤٢ مدرعة وبطارية مدفعية هاون تضم خمسة مدافع.. إضافة إلى قوة من سلاح المهندسين والإشارة ومستشفى ميدانى(*) ..

وفوجئ قائد القوة العميد (أ.ح) محمد أحمد أبو الدهب بهذا الموقف الحرج لقواته ومحاولة لإنقاذ أرواح جنوده .. أخرج أبو الدهب مندباً أبيض من برج المدرعة ولوح به.. فى هذه الأثناء وصل السيد خالد محمد إبراهيم واستطاع الوصول إلى مكان المدرعة الأمامية حيث تعرف على الرائد عثمان الأمين قائد حامية كوستى الذى عرفه بالعميد أبو الدهب .. فاستفسر خالد عن

(*) مواقف على درب الزمان محبوب بدير محمد نور ص ٤١٦ - ٤١٩ .

أسباب هذا التحرك المفاجيء.. فقال أبو الذهب بأنه مندوب الضباط الأحرار وجاء للتباحث مع الإمام.. فسأله خالد عن مبررات حضوره على رأس كل هذه القوة، في الوقت الذي يريد فيه مجرد مقابلة الإمام.. فرد أبو الذهب بأن تلك القوة ليست تابعة لثميرى، وأنه كان في (طوف) بتلك القوة.. ولقد كلفه زملاؤه مقابلة الإمام نيابة عنهم.

ورغم عدم اقتناع خالد بالمبررات التي ساقها العميد أبو الذهب.. إلا أنه أخذه والضابط عثمان الأمين لمقابلة الإمام الهادي.. وعند البوابة الشمالية للسراى توقفت عربة خالد فهبط منها ودخل السراى بعد أن كلف مجموعة من شباب الأنصار لحراسة العربة وحماية الضابطين اللذين بداخلها من أى اعتداء.. أما على الجاسر فلقد كان الموقف رهيباً، آلاف الأنصار في حالة هياج واستنفار.. تم توزيع المدافع الخارقة للدروع حول المدرعات..

حرارة الجو تشوى الوجوه.. لفحات ساخنة من الهواء تزيد الأعصاب توتراً.. جهود مضنية لمحاصرة التوترة.. ومنع النار من التوهج ثم الاشتعال.. فجأة.. هدر محرك إحدى المدرعات لقد حاولت على ما يبدو أن تصحح وضعها هدرت معها آلاف الحناجر بالزئير وتأهبت للوثوب كاثمور على فريستها ولولا لطف من الله.. لكانت أبواب جهنم قد فتحت في لحظات.. الجنود داخل المدرعات في وضع لا يحصلون عليه.. درجة حرارة لا تتحمل.. وأصوات الأنصار بالخارج وصليل سيوفهم وأسلحتهم يزيدهم توتراً على توتر كل شيء ينذر ببركان وشيك..

وبعد أن استمع الإمام الهادي إلى حديث أبو الذهب وحمله شروطه للتفاوض أصدر أمراً بحمايته وأفراد قوته حتى خروجهم من الجزيرة، وكلف سعد عباس توفيق للإشراف على تلك المسؤولية، وفي هذا يقول الأستاذ سعد نفسه:

- حضرت عربية (استيشن) لداخل السراى وركب فيها الضابطان أبو الذهب وعثمان الأمين «مرافق أبو الذهب» بينما ركب بجوارهما على الجانبين

السيدان الفاضل على المهدي والطاهر الفاضل محمود لحمايتهما من أية محاولة اعتداء .

انطلقت العربّة خلال شوارع شبه مقفرة فالجميع هناك على (الجاسر) يشاركون في محاصرة مدرعات وجنود القوة وفي لحظات وصلنا منطقة الجاسر وهنا أحسست بمدى (الورطة) التي وقعنا فيها، أحاط الآلاف بالسيارة وتجمعوا حولها في محاولة لمنعها من الاستمرار في مسيرتها فما كان أمامي من سبيل غير الاستعانة بعدد من شبابنا للتقدم أمام العربّة في محاولة للوصول إلى أقرب مدرعة ومن ثمّ تسهيل مهمة دخول أبو الذهب وعثمان الأمين داخلها ليحتميا خلف درعها القوي من أية حربة طائشة أو سيف بتار .

وسرنا على هذا الحال أكثر من ٤٠ دقيقة، وعندما اقتربنا من أول مدرعة طلبت من العميد أبو الذهب القفز داخلها لكنه رد على طلبي بقذيفة أطلقها على رأسي بلارحمة، لأنني أريد الخروج بالعربّة حتى نهاية الجاسر، فأنا ذاهب إلى كوستي.. لقد حملني الإمام الأمانة ووعدته بأن أصونها .

إن الإمام يعرف رجاله جيداً.. يعرف مدى اندفاعهم عند الغضب.. ولكن ما كان له أن يتخيل حالتهم في تلك اللحظات.. لقد تجاوزوا مرحلة الغليان بصورة عجيبة .

العربّة متوقفة بجوار المدرعة الأولى ولا سبيل للتقدم، فالجاسر مسلود بآلاف الأنصار وعشرات المدرعات وسيارات الغزاة. أما التقهقر إلى الخلف فهو المستحيل بعينه .

لم يكن أمامنا من سبيل إلا انتظار خروج المدرعات واحدة بعد الأخرى.. حتى يفتح الطريق.. وتجد العربّة منفلاً تخرج منه .

العربّة عاجزة عن الحركة.. والثواني تمر بطيئة.. والموقف يزداد سوءاً في كل لحظة .

لقد فقد الكثير من رجالنا القدرة على التمييز بين العدو والصديق.. هاجمني أحدهم بسيفه ولولا يقظة الشباب حول العربية لقضى الأمر .

أصابته حربة السيد الفاضل على المهدي في كتفه عند اعتراضه مسار النصل الحاد لحماية الضابطين .

وعلى الجانب الآخر من العربة أصيب السيد الفاضل محمود في يده في محاولة منه أيضاً لرد الطعن عن الضابطين .

لقد أثنخونا بالجراح ولم تمض غير دقائق قليلة على وقوفنا بينهم .. فكيف الحال والمصير . وانتظارنا سيطول حتى يفتح الطريق ؟

استعنت بمجموعة من حملة الرشاشات لتعزيز الحراسة حول العربة وياه من موقف وجدنا أنفسنا فيه سلاحنا ضد رجالنا سالت دماؤنا حماية لدمائهم ضربنا أهلنا ورجالنا .. حماية لرجالهم » . ويواصل الأستاذ سعد حديثه قائلاً : بعد جهد كبير استطعنا السيطرة على الموقف المتفجر .. وعندما زاد الأمل داخلنا بخروج الضابطين سليمين من الجزيرة ، وصل خبر من السراى بخروج عربة محملة بالسلاح والذخيرة في طريقها إلينا . يقودها الهادى يسّ ومعه الشهيد محمد صالح عمر ومهدي إبراهيم وعبدالمطلب بابكر .

لماذا هذا السلاح ولمن ؟ أسئلة دارت سريعاً برأسى .. أمرت مجموعة من حملة الرشاشات والقنابل اليدوية بالتقهقر سريعاً والتمركز عند أحد المعابر التى ستمر بها عربة السلاح ومنعها من الوصول إلى الجاسر بأية طريقة كانت .

لقد تصورت - ومعى العذر بأن قلوب العربة بهذا السلاح وداخلها هذه المجموعة وفي هذا الوقت بالذات نذير شر مستطير ، فلقد كنا قد وزعنا كل ما نحتاجه من سلاح على المواقع منذ وصول القوة الغازية أما الآن فلقد صدر الأمر بتأمين خروج القوة . فلماذا هذا السلاح ؟

وهنا يروى الشيخ محمد محمد صادق الكارورى تفاصيل ما حدث فقال « لقد عارضنا بشدة لإطلاق سراح الوفد ، لثقتنا بأنهم مخادعون ، لكن الإمام أمر بخروجهم فى سلام ، بعد أن أملى شروطه على الوفد ، وجعل أبو الذهب يقسم على المصحف بأن ينقل شروطه إلى نيمرى ، وأن لا يخون العهد . ولقد فقد الشهيد محمد صالح عمر أعصابه للرجة أنه أمسك الإمام من جلبابه وهزه

قائلاً: ما يمكن الجماعة تخرج .. ولقد حاولت تهدئة الأخ الشهيد وقلت له أن الإمام قرر خروجهم وانتهى الأمر .. بعدها خرج محمد صالح ومهدى إبراهيم وعبدالمطلب !.

فإن قرائن الأحوال تؤكد أن خروج هذه المجموعة كان بهدف القبض على الضابطين أو مهاجمة القوة » .

ويستمر الأستاذ سعد في وصف ما حدث فيقول:

العربة متوقفة عند مدخل الجاسر الغربي وشباب الأنصار يجاهد لحماية الضابطين مستخدمين مؤخرات الرشاشات وكعوب البنادق .
أخيراً . بعد ساعة مرت علينا كالدهر انفتح الطريق .. فانطلقت العربة وسط آلاف الأنصار الذين تعالت أصواتهم بالتكبير لله عز وجل مرددة بنشيد الأنصار .

إلى الأمام إلى الأمام يا شباب الإمام
نمضي كما مضى الجدود وسجلوا لنا الخلود
وحطموا كل القيود بالدين والبأس الشديد
بسيوفهم كشفوا الظلام

على مسافة حوالى ٥٠٠ متر من الجاسر أوقفت العربة ونزل الضابطان منها وقام السيد/ الطاهر الفاضل محمود بتسليمهما سلاحهما الشخصي الذى كان الأنصار قد جردوهما منه قبل دخولهما على السيد الإمام .

بعد ذلك عدت إلى الجزيرة سريعاً لنقل السيد الفاضل على المهدى إلى المستشفى نظراً لخطورة جرحه لأنه مصاب بمرض السكرى . وبعد ذلك تقدمت للإمام بتقرير شامل عن موقف الأنصار والقوات المدرعة على الجاسر . واستفسرت الإمام عن سبب خروج العربة المحملة بالسلاح والدخيرة، نفى

علمه بالموضوع فلقد استغل الشهيد محمد صالح عمر ومهدى إبراهيم وعبد المطلب بابكر علاقتهم بالتدريب ومخازن السلاح فطلبوا من الهادى يس مسئول حراسة مخزن الأسلحة إعطاءهم أسلحة لحاجة القوات الموجودة بالجاسر للأسلحة .

وتولى الهادى قيادة السيارة، ولكن تقدرتون فتضحك الأقدار . فبينما العربية منطلقة بأقصى سرعتها إذا بها تنقلب عند أحد المنعطفات فتسقط حمولتها على الأرض .

كانت بقية المدرعات تتعثر فى الخروج من الجاسر، بينما سقط بعضها فى مياه النهر أثناء دورانها للخروج .

كل شئ يسير الآن بصورة هادئة، اكتمل خروج كل المدرعات خارج الجسر، عدا مدرعة واحدة مازالت تجاهد بمساعدة عدد من الجنود للخروج من النهر.. فجأة سرت بين الأنصار معلومة تقول: أن الحكومة تتعمد إسقاط مدرعاتها فى مياه النهر انتظاراً لقدوم الليل، لتعاود الهجوم على الجزيرة مرة أخرى . ولقد وجدت المعلومة صدى قوياً بين آلاف الأنصار الموجودين على الجاسر.. فلقد جددت عندهم الأمل فى الانقضاء على الطريد .

توتر الجو، وعادت نذر العاصفة لتتجمع فوق سماء الجاسر مرة أخرى .. أخيراً ابتعدت قوة المدرعات عن أرض الجزيرة وابتعد معها شبح الحرب الذى خيم على سمائها طوال النهار .

بزغت شمس الجمعة ٢٧ مارس ١٩٧٠ على الجزيرة أبا، كما فعلت ذلك ملايين المرات من قبل. ومرت الساعات الأولى من النهار بلا نذير شر أو خطر .

قراءة الساعة العاشرة صباحاً أبلغت نقطة المراقبة خارج الجزيرة. عن ظاهرة غريبة لم تحدث من قبل، فقد لاحظ المراقبون شيئاً غير عادى فى حركة المرور من وإلى ربك وكوستى، فمنذ الصباح لم تخرج منها أى عربة أو لورى كما أن جميع السيارات التى تدخلها لا تخرج مرة أخرى، عائلة

وكان التفسير الوحيد لهذه المعلومة أن هناك نشاطاً ما حول كوستي وربك على درجة عالية من الأهمية، ويتطلب قدراً كبيراً من السرية، مما يتطلب حظر الخروج من المدينتين حتى لا تتسرب أنباء ما يجري هناك .

فطلب من نقطة المراقبة في «حجر عسلية» إرسال مجموعة استطلاع لمدينة ربك لاستجلاء الحقيقة، وصدّرت التعليمات لقوات الأنصار بأداء صلاة الجمعة في مواقعها، وأدى الإمام صلاة الجمعة في الساحة المواجهة للسراى من الناحية الغربية ..

في الثانية وأربعين دقيقة وصلت إشارة من نقطة الرصد بحجر عسلية تفيد بأن قوة مدرعة قد تحركت في اتجاه الجزيرة .

صدّرت التعليمات للأنصار المرابطين شرق الجاسر والمكونة من ١٠ أفراد بالدخول إلى الجزيرة حتى لا تتعرض للإبادة، ونقل احتياطي المدافع الخارقة للدروع والذخيرة إلى الموقع .

في الثالثة وخمسة وعشرين دقيقة ظهرت أول مدرعة أمام الجاسر، بينما احتمت بقية القوة (٧ مدرعات) خلف تل يقع جنوب شرق الجاسر توقفت المدرعة للحظة، ثم بدأت في إطلاق نيران مكثفة من مدفعها على الجزيرة، فصعد على الفور أمر للمجاهدين بالاحتواء داخل الخنادق وخلف السواتر وعدم الرد على النيران، فلقد كانت المدرعة على مسافة تزيد على ألف و ٥٠٠ متر أى خارج مدى نيراننا، هذا بجانب أن الرد على نيران المدرعة سيجعلها تكتشف المواقع، ومن ثم تدمرها .

تقدمت مجموعة من المجاهدين من الجاسر وسط أفراد قلائل وبدأوا في إطلاق النار على المدرعة من مدافع (البرن)، ورغم عدم جدوى ذلك إلا أن الهدف كان في الأساس إبعاد نظر المدرعة عن الكمين الذى نصب لها .

فلقد تم تجهيز وتوجيه مجموعتين من مجموعات البازوكا والـ(آر-بى-جى) بالتقدم إلى شرق الجاسر حيث المدرعة لتدميرها .

وفي نفس اللحظة كانت هناك طائرتان من طراز (سكاى هوك) تحلقان

على الجزيرة، وتقصفانها، فردت عليها مدفعية المجاهدين بنيران كثيفة.. وحلقت طائرتان فوق السراى، وقامت بقصفها، فتهاوت المنازل وأعمدة الكهرباء من حولها .

وبينا الكل يقف على الجاسر يتابع كل ذلك، فجأة قام أحد الأنصار ممتطياً صهوة جواده، يسابق الريح بهجمة انتحارية على المدرعات .

لحظات مرت كالخيال، فارس بحربة وسيف ومدرعة بمدفع رهيب، والفارس مندفع يهاجم جبل الحديد.

أمتار قليلة قطعها الفرس بفرسه، ثم وصل إلى هدفه (الله أكبر تعالت ثم الشهادة في سبيل الله) .

في هذه اللحظة وصلت مجموعة الـ (آر - نى - جى) إلى الضفة الشرقية للنهر، وأخذت مواقعها داخل الغابة في وضع الاستعداد لإطلاق النار، ثم انطلقت القذيفة الخارقة. وبدلاً من أن تدمر المدرعة دمرت استراحة خلف المدرعة، إنه ضعف التدريب على هذا السلاح الحديث .

وكان لابد أن تكتشف المدرعة موقع المقاتلين. وجهت مدفعها الثقيل. ورشاشها المتوسط في اتجاه الغابة .

وفي هذه اللحظة -تماماً- تقدمت مجموعة البازوكا دون انتباه من المدرعة، وأصابها إصابة مباشرة، فسكنت حركتها وتوقفت عن إطلاق النيران.. فتقدمت بقية القوة المدرعة، مطلقاً وابلأ من نيران قذائفها على منازل الجزيرة ومنطقة السراى، بينما قام جنود سلاح المهندسين بسحب المدرعة خارج أرض المعركة .

أصابت قوات المجاهدين إحدى الطائرتين، فانطلقت شمالاً تتبعها سحابة كثيفة من دخان أسود.

ازدادت المعركة ضراوة بعد إصابة المدرعة والطائرة، فانضمت الطائرتان اللتان كانتا تقصفان وسط الجزيرة والسراى إلى رفيقتهما الثالثة ليشارك الجميع

في قصف جموع الأنصار بغرب الجاسر، بينما سرية كاملة من المدرعات تدك الأرض دكاً بمدفيعتها الثقيلة.

مواقع الأنصار ما تزال ساكنة تنفيذاً للأوامر، فلم تشترك في المعركة حتى الآن غير مجموعات بعينها.

لقد كان بعد المسافة بين الأنصار والقوات المدرعة، هو الحائل الوحيد دون مشاركتهم بفاعلية في المعركة.

وكان الحل الوحيد هو التقدم والالتحام بالمدرعات.. ولكن كيف الوصول؟.

إن أى محاولة لعبور (الجاسر) انتحار مؤكد، فعبور مسافة ألف و ٥٠٠ متر في خط مستقيم على جسر مكشوف وفي مواجهة ٧ مدرعات وثلاث طائرات نفائة، هو المستحيل بعينه.

لم يكن الوصول يحتاج إلى شجاعة فهي في رجال الأنصار بل وفي نسائهم هبة من السماء.

لكن الوصول كان يحتاج إلى تدبير وتقدير صحيح.

وفجأة حدث ما قلب الموقف رأساً على عقب ظهرت مجموعات كبيرة من أنصار الله المقيمين على الضفة الشرقية من النهر مندفعين وسط أشجار الغابة، وانقضوا على المدرعات كالضواري. عشرات الرجال يهاجمون المدرعات بالحرايب والسيوف، يتسلقون أبراجها الفولاذية في محاولة يائسة للوصول لمن هم بداخلها.

والمدرعات من جانبها ترد الهجوم بضراوة متناهية تسحق الرجال تحت إطاراتها.

ارتفعت سحب الغبار والدخان واختفى مشهد المأساة عن ناظرينا.

وكانت تلك فرصتنا الوحيدة للالتحام بالعدو، فلقد انشغلت المدرعات بالهجوم المفاجيء وحجبت الأتربة والدخان الرؤية.

تحركت إثر ذلك مجموعة القنابل اليدوية والرشاشات المتوسطة بالاندفاع في سرعة لعبور الجاسر قبل أن تفيق المدرعات وتقضى على المهاجمين . ولم يشترك في الاندفاع مجموعات المدافع خارقة الدروع رغم الحاجة إليها نظراً لثقل حركتها مما سيعرضها للدمار .

فيما وجهت كل القوات المتبقية غرب الجاسر نيرانها الكثيفة على الطائرات لحمايتهم أثناء العبور .

المعركة بين المدرعات والأسود المجاهدين على أشدها .. وفي ثوانٍ معدودة عبروا الجاسر والتحموا بالمدرعات .

أصوات الرصاص والانفجارات تصم الآذان . وعاصفة من تراب ودخان تعمى الأبصار ، صراخ جرحى ، زفرات قتلى ، هدير محركات ، دعاء وتكبير . فجأة انسحبت المدرعات . ومن خلفها جنود المورتر . ولكن لم تحاول مدرعة واحدة الانتظار لثوانٍ قليلة من أجل التقاط رفيق ، سلاح . فقد تضخمت قلوبهم رعباً ، وتركوا رفاقهم لمصيرهم المحتوم .

مئات الطلقات تلاحق هؤلاء التعساء . بقايا من دم ولحم ممتزج بحصى الأرض هو كل ما تبقى من رجال كانوا منذ دقائق قليلة .. حياة وحيوية . غروراً وصلفاً .

قرص الشمس الفضى . يوشك على الاختفاء خلف الأفق البعيد ، تقهقرت المدرعات تاركة خلفها وحدة المورتر غنيمة للأنصار . بجانب ناقلة جنود ضخمة بسلاحها .

تولى العم (تيراب) رئيس الميكانيكية بالجزيرة أبا قيادة الناقلة رغم إصابة إطاراتها بالنيران ، فسارت على الجاسر متقدمة نحو الجزيرة وهى محملة بصناديق ذخيرة ورشاشات متوسطة وخفيفة . وقنابل يدوية وأصابع ديناميت .

غربت شمس الجمعة ٢٧ مارس ١٩٧٠ وغربت معها أرواح عشرات الرجال والنساء والأطفال ومن قوات الأنصار المدربة استشهد ثمانية ، وجرح

واحد وعشرون ومن سكان الجزيرة وما جاورها استشهد ٧٣ وأكثر من مائة جريح .

وقتل ١١ من قوات الحكومة . انتهت معركة القوات وبدأنا معركة لإنقاذ الجرحى .

الطبيب الوحيد بمستشفى الجزيرة أبا خرج منها هارباً مع بداية القتال ناسياً المبادئ التي تحكم مهنته وقسم (أبوقراط) . نسى كل شيء إلا نفسه وترك هؤلاء البؤساء للألم والعذاب ، والموت .

الظلام الحالك يغطي كل الجزيرة بعد أن تدمرت خطوط الكهرباء .. وحرائق هنا وهناك حيث سقطت القنابل وقذائف الدبابات .

شابة في عمر الزهور ملقاة على الأرض بعد أن انفصلت ذراعها عن جسمها وتمزقت أحشاؤها تمد يدها الباقية طالبة العون ، ولا معين غير الله .

لم يكن أمامنا من سبيل لإنقاذ هؤلاء الجرحى ، كانوا يتعذبون وكنا في عذاب أشد ، عذاب العاجز الذي وقف يشاهد أحب الناس وأعز الصحاب يصارعون الموت والألم أمام ناظريه .. ينادونه فلا يجيب .

قمنا بنقل الجرحى إلى المستشفى . التي لم يكن بها في تلك اللحظة غير ممرضين اثنين فقط نقلنا المصابين بإصابات طفيفة ، أما أصحاب الإصابات الخطيرة فلقد احتسبناهم شهداء عند ربهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

بمعاونة من الأخ محمد محمد الصادق الكارورى قمت بتأمين إحدى قذائف الطائرات التي لم تنفجر ، ونقلناها خارج السرايا بعيداً عن المساكن .

الإمام المجاهد وسط رجاله يتفقد الدمار ، يواسى الجرحى ، لم يغادر السراى رغم تركيز القصف عليها من الطائرات والدبابات ، ورغم المحاولات التي بذلها الكثيرون لإقناعه بالخروج .

قمت بمعاونة الأخ الكارورى بتوزيع مجموعة مدافع المورتر على المواقع بعد تركيبها وشرح طريقة استخدامها لشباب الأنصار .

تبادل النيران مستمر طوال تلك الليلة، وأطواف الحكومة. تنتشر حول الجزيرة. وقام بعض من الرجال من موقع (طيبة) بقصف مطار ربك بمدافع الهاون لمنع الحكومة من تعزيز قواتها بالمنطقة.

انتهى اليوم الأول من المعركة بسقوط ٨٣ شهيداً، وأكثر من ١٢١ جريحاً وانسحبت مدرعات الحكومة بعيداً، وعاد الأنصار ينظمون صفوفهم، ويرعون جرحاهم، ويدفنون شهداءهم.

ثم بزغ فجر اليوم الثاني السبت ٢٨ مارس ١٩٧٠.

حوالى الساعة الثالثة فجراً، تحركت مجموعة قتالية مكونة من ٣٥ شاباً، مجهزة بخمسة مدافع خارقة للدروع و ١٥ رشاشاً متوسطاً بالإضافة إلى مجموعة من الرشاشات الخفيفة والقنابل اليدوية خرجت حتى منطقة (حجر عسلية) وقامت المجموعة بالانتشار وسط الصخور، في وضع الاستعداد.

عند الرابعة وعشر دقائق.. وصلت سرية مدرعة مكونة من تسع مدرعات وتوقفت في موضع تستطيع أن تطاله نيران المجاهدين الذين أطلقوا النار فوراً، وفي الحال أصابوا مدرعتين.

اندفعت إثر ذلك بقية القوة المدرعة والتفت حول موقعهم من الناحية الجنوبية الشرقية، وفتحت نيرانها كثيفة عليهم وبادلوها إطلاق النار بالمقابل، فأصبنا مدرعة أخرى.

في هذه الأثناء تقدمت من ربك مجموعة من الدبابات (٥٥) وشاركت سرية المدرعات الهجوم على مواقع الأنصار.

صدرت الأوامر للقوة بالانسحاب تجاه النهر حيث الغابة كثيفة والأعشاب عالية.. وقد فقدت حتى ذلك الوقت ثلاثة شهداء، وجرح سبعة.

استمرت المدرعات في مطاردتهم أثناء الانسحاب، وهى تطلق نيراناً كثيفة على أى هدف متحرك.. الأمر الذى دفعهم إلى التفرق في مجموعات صغيرة منعاً للتطويق..

وبعد جهد وصلوا إلى الجزيرة أبا، حيث لا أثر للحرب إلا بقايا معركة
الأمس، وفي حوالي الساعة التاسعة صباحاً جاء أخى الأكبر الفاضل ومعه
أربعة من المجاهدين الأنصار وطلب من سكان حى الجزيرة وسط وحى السوق
مغادرة المنازل والتوجه إلى غابة مقابر سيدى الطيب فى شمال الجزيرة التى تبعد
حوالى ٤ كيلومترات إذ كان يجب علينا أن نتحرك فى صف طويل من تلك
المنطقة الواسعة المكشوفة، فكان مشهد الأطفال وهم يركضون خلف أمهاتهم
كلما سمعوا صوت الطلقات النارية المتواصل يعقبه بين الفينة والأخرى دوى
مدفعى هائل بحثاً عن حماية من ذلك العلوان الوحشى المجرم. كان مشهداً يعبر
عن صورة مأساوية موجعة تحكى ظلم وغدر أولئك الأشخاص الذين مات
فيهم الإحساس بقيمة الإنسان.

وأثناء تلك المسيرة الحزينة حلقت فوق رؤوسنا طائرة ووزعت منشورات
سقط معظمها خارج الجزيرة أبا، وعلمت فيما بعد أنها تحتوى على إنذار
بإخلاء الجزيرة أبا بعد أن قاموا بدكها بالقنابل لمدة ٢٤ ساعة وسدوا كل منافذ
الخروج لإكمال مجزرتهم.

بعد وصولنا للغابة التى كانت تتوسطها المقابر مكثنا هناك يومين (ليلة
السبت والأحد) عانينا فيها من العطش والجوع والخوف وقلة النوم من دوى
المدافع والقنابل وكثافة البعوض. وكنا نتوسد الرمل والقبور فى الليل وكنا
نستظل بالأشجار من لظى وحرارة الشمس وأعين قاذفى الجحيم الذين
لا يفرقون بين طفل وامرأة، شيخ أو شاب.

والجدير بالذكر بأنه لولا مجهودات إحدى النساء المخلصات وهى أثيرية
كانت تقوم بمساعدة الوالدة فى تربية الأولاد وكانت بمثابة أمنا الثانية إذ عاشت
معنا لمدة تزيد على ٢٥ عاماً، قامت تلك السيدة الفاضلة بالتسلل إلى قلب
الجزيرة أثناء القصف المحموم لتعود لنا محملة بالطعام الذى أطعم الجميع فكانت
تلك الوجبة الوحيدة التى تناولناها فى تلك الفترة.

وكانت الوالدة رقية عبدالله الفاضل المهدي التى ظلت معنا فى ذلك المكان
الموحش تقطع خوفنا وهلعنا بدعوات خاشعة لله رب العالمين.

الأحد ٢٩ مارس :

بدأت مع إشراقة شمس ذلك اليوم تنهال على الجزيرة قذائف ثقيلة من المدفعية الهاوتزر عيار (١٥٥) التي تفوق قذائف الدبابات حجماً .

إنها الهدية التي قدمتها دولة عربية لتميرى ليسحق بها الأنصار . مدفعية مية اشتراها الشعب العربي لضرب أعداء العرب والإسلام . وهاهى تنهال على قرية عربية مسلمة لأنها رفضت القهر والظلم .

بدأت المذبحة بصورها الرهيبة . القصف العنيف المتبادل بين مدفعية الهاوتزر ١٥٥ ونفاثات الميج ٢١ الأسرع من الصوت .

طارت الأشجار والأجساد وامتألت الأرض بالدماء والأشلاء، دمرت منازل على ساكنيها وقتل العشرات من النساء والأطفال وسط الغابات التي احتموا بها من هذا الرعب الطائر المتساقط من السماء بلا تفرقة ولا تمييز .

لقد كانت فرصة لتدريب الطيارين العرب على قصف المدن العربية . استعداداً لقصف تل أبيب الصهيونية . ذلك فضلاً على إشراك طائرات الميج ٢١ الروسية بقيادة الخبراء والمدربين الروس وذلك لعدم توفر الطيارين السودانيين الذين يمكنهم قيادة هذا النوع من الطائرات وبذلك يكون قد ساهم في قصف الجزيرة أبا دولتان عربيتان ودولة عظمى هي الاتحاد السوفيتي . وقد أثبت الطيارون كفاءة عالية فلم يسلم من قذائفهم امرأة أو طفل (*) .

أصدر الإمام أوامره بتجهيز قوة من شباب الأنصار لعبور النهر من الناحية الغربية ومهاجمة موقع الطويلة المواجهة للجزيرة من ناحية الغرب ثم التقدم بعد ذلك لمهاجمة حامية كوستي من الناحية الغربية . تم تجهيز القوة ١٥٠ شاباً ووسائل العبور بقيادة الأنصارى/فضل المولى جبارة .

لقد كانت العملية من الناحية التكتيكية جيدة وضرورية . فانتشار الأنصار خارج الجزيرة وهجومهم على الحامية الحكومية سوف يجعل هذه القوة تتحول من الدفاع إلى الهجوم ، كما أن الانتشار خارج الجزيرة سيفقد الطائرات قيمتها .

(*) مواقف على درب الزمان عقيد . م . بندر محمد نور (الجزء الثاني) ص ٤٢٤ ، ٤٢٥ .

لكن فجأة تصل أوامر جديدة من السيد الإمام بوقف العبور . لماذا؟؟ لقد خاف الإمام على السودان ، فالدم رغم كثرتة مازال محصوراً في الجزيرة أبا . والأنصار رغم عنفهم مازالوا تحت سيطرته . لكن خروجهم وانتشارهم خارج الجزيرة قد يحول المعركة من معركة محدودة بين القوات الحكومية والأنصار إلى معركة شاملة وحرب أهلية قد لا تبقى ولا تذر .

لك الله يا إمام الأنصار . في أحلك ساعات حياتك والموت يترصدك من كل جانب والنار تحاصرك أينما سرت مازلت تفكر في هذا الوطن ، تفكر في إنقاذه ولا تفكر في إنقاذ نفسك ، تفكر في بقاءه ولا تفكر في بقاءك . إنه الإمام المجاهد الهادي المهدي .

لقد كانت حياته مثلاً خالداً للوطنية والإخلاص والتضحية لأبعد الحدود في سبيل الإسلام والسودان . ضحى بكل ما يحرص عليه الناس في الحياة . ضحى بكل ما هو عزيز ، ضحى حتى بحياته وجعلها فداء لهذا الوطن . اقترح الأخ الشهيد محمد صالح عمر القيام بهجوم على القوات في محليج ربك . وافق الإمام على الاقتراح هذه المرة فالعملية موجهة ضد قوات المحليج ومحدودة الهدف وتحت قيادة محمد صالح عمر .

القصف العنيف بلا هوادة أو رحمة وبلا انقطاع . طائرات الميج النفثة تطلق صواريخها ورشاشاتها على أى كائن حى ، إنساناً كان أو حيواناً . تترك الطائرات الساحة لتبدأ مدفعية الهاوتزر ١٥٥ مم القيام بدورها في إبادة من نجا من الكائنات الحية التى تقطن هذه الجزيرة .

هذه آخر ساعات الدنيا . ورغم هذا الهول .. نجد الأنصار .. فرحين مستبشرين .. مرحباً بالموت زائراً عزيزاً جاء على شوق وانتظار . الشهادة في سبيل الله أمنية الأبطال وأمل المؤمنين وفي أشرف ساحة .. في سبيل الله .

الاثنين ٣٠ مارس ٧٠ م :

جاءت توجيهات الإمام لجميع النساء والأطفال والشيوخ بالخروج من الجزيرة بأى وسيلة ممكنة ، وكنا ضمن ذلك الفوج الذى خرج فجر الاثنين ١٩٧٠/١٢/٣١ في عربة لاندروفر مكشوفة امتلأت عن آخرها بالنساء

والأطفال، وكان معى بالمقاعد الأمامية للعربة الوالدة رقية والخالة قمر عبد الله وأختى الصغرى صديقة ومن الخلف شقيقاى وأخى نصر الدين وأخى مهدي ومجموعة أخرى من النساء والأطفال امتلأت بهم العربة حتى فاضت، وكان خروجنا فى حد ذاته معجزة، إذ أننا خرجنا عن طريق الجاسر الذى كان محروساً بقوات النظام الشيوعى. ولهذا كنا نتوقع فى أى لحظة أن يكتشف أمرنا وتوجه نحونا قذيفة غادرة تنهى حياتنا. لقد كانت لحظات حرجة ومن أصعب المواقف التى يمكن أن يتعرض لها الإنسان، ولكن شاءت إرادة المولى أن تمر تلك اللحظات بسلام، وتوجهت العربة التى كان يقودها ابن خال الإمام الهادى فرج الله خليل من هناك إلى قرية الشوال التى تقع شمال الجزيرة وهى أحد المراكز الرئيسية لتجمعات الأنصار وموطن والدته الإمام الهادى حيث وجدنا أعداداً كبيرة من الجنود على ظهور الدبابات فأوقفونا وتم التحقيق مع سائق العربة الذى أوضح لهم بأننا جئنا من كوستى وأنا ذاهبون إلى الخرطوم، فسمح لنا بالمرور بعد فترة عصيبة من القلق والانتظار والخوف، وتعرضنا للتفتيش أكثر من مرة على طول الطريق من الجزيرة إلى الخرطوم، وعند وصولنا مشارف مدينة القطينة التى تقع جنوب الخرطوم علمنا هناك أن حى ودنوباوى قلعة الأنصار فى مدينة أم درمان ومقر إقامة الإمام الهادى تعرض لمجزرة بشرية بشعة أخرى بعد أن سِيرَ الأنصار من هناك مظاهرة صامتة رفعوا فيها الشعارات التى تندد بضرب الجزيرة أباً فتقبلنا الخبر بحزن دفين خاصة عندما علمنا بأن أطفال الأنصار الذين كان يتلون القرآن فى خلوة مسجد الإمام عبد الرحمن بودنوباوى والعجزة المقيمين هناك قد تعرضوا للضرب بقاذفات اللهب فحرقَت أجسادهم وبقيت متفحمة فى أوضاع مختلفة، وأن المسجد لم يسلم أيضاً من قذائف الدبابات فدمرت مئذنته وحرقَت مصاحفه وأن منزل الإمام ومنازل الأنصار قد كانت هدفاً لرصاص الانقلابيين، ورغم كل ذلك قررنا مواصلة المسير ووصل ركبنا الحزين إلى مدينة أم درمان مشخين بالجراح، تختزن فى ذاكرتنا صور موجعة لمواقف عصيبة تاركين خلفنا المجاهدين الأبطال يلدودون عن قلعته ومبادئهم فى مواجهة (الغدر) المايوى.

وعند وصولنا عشية الاثنين ١٩٧٠/٣/٣١ وجدنا السكون يهيمن على
حى ودنوباوى واختفى المارة من الطرقات ما عدا بعض الجنود الذين انتشروا
على طول الطريق يحملون أسلحتهم النارية وقد بدا عليهم الاضطراب الواضح
الناجم عن تلك المجازر البشرية البشعة التى أقدموا عليها فى أصيل ليل دامس
رتعت فيه شياطين نحسهم لتحيل تلك الديار الآمنة إلى حالة من الفوضى
والخراب . وبمجرد دخولنا منزل الإمام الشهيد بودنوباوى داهمتنا قوة من الجنود
تجاوزت الـ ١٠٠ جندى وهم مدججون بأحدث الأسلحة ليقتحموا المنزل من
كل منافذه الداخلية فى مواجهة نساء وأطفال ، فصاح أحدهم « ثابت ارفعوا
أيديكم » ففعلنا بدهشة وهلع حقيقى . ثم تقدمهم ضابط برتبة مقدم يطلب من
الوالدة السيدة رقية أن تذهب معه ليعم استجوابها فرفضنا نحن الصغار أن نترك
الوالدة وحدها فبكينا وأصررنا أن نرافقها فوافق الضابط مكرهاً بعد أن بدت
على محياها علامة التردد وسمح لنا بمرافقتها فأخذنا إلى العربة وقد صويت
الرشاشات والبنادق إلى ظهورنا ورؤوسنا ، ثم قاموا بجولة بنا بالعربة داخل
مدينة أم درمان ليمطروا الوالدة بعدد من الأسئلة انصبت كلها حول مكان
الشهيد فأجابته الوالدة بأنها لا تعلم ، وكرروا السؤال بجلافة وغلظة وتهديد
فأجابت الوالدة بالجواب نفسه ولما يمسوا من تلك المحاولات المتكررة لم يكن
أمامهم غير إرجاعنا من حيث جئنا إلى ديارنا فى ودنوباوى حيث وجدنا بعض
أفراد الأسرة ينتظروننا فى قلق شديد بعد أن تسرب نبأ اعتقالنا .

كنا فى تلك اللحظات نعانى من التعب والإرهاق الشديدين إضافة إلى
حالة التوتر التى قد تكون نتيجتها إزهاق أرواحنا ببساطة شديدة إذ لم نذق
طعم الأكل غير مرة واحدة خلال تلك الأيام العصيبة وكنا إبانها نفترش الثرى
فى مقابر الجزيرة أبا ، ولهذا كنت أتشوق إلى فراش آمن يضمنى أنا ابن العاشرة
مع أسرتى بعد تلك الأحداث ، ولكننا فوجئنا بأن المنزل قد أصبح خراباً بعد
تعرضه لتفتيش دقيق استخدمت فيه كل الوسائل ومزق الجنود حتى الفراش
وبالطبع لم تكن تلك الصورة القائمة تحدث شيئاً فى نفسى مقارنة بما شاهدناه فى
الجزيرة أبا .

الاثنين ٣٠ مارس ٧٠م :

نعود مرة أخرى للجزيرة أبا حيث عمليات الإبادة مستمرة وبلا انقطاع القصف ينهمر على البلد بلا رحمة أو شفقة لقد تحولت المعركة إلى إبادة لجماعة الأنصار. فقد رأى النظام وأذناؤه في الداخل والخارج أن لا سبيل لبقائهم ما بقي أنصاري على هذه الأرض يسعى .

لم يكتف النظام بطائرات الميج الصديقة ولا بمدفعية الهاوتزر الثقيلة بل حرك منذ صباح هذا اليوم مجموعة من دبابات ت ٥٥ الثقيلة للمشاركة في تدمير ما بقي من أحياء بالجزيرة أبا بمدفعتها عيار ١٠٠ مم .

تم عقد اجتماع عصر هذا اليوم بمنزل السيد/ بشرى السيد حامد أوضح فيه للسيد الإمام وضع قوات الأنصار وثباتهم لهذا الهول واستعدادهم للصمود أياماً أخرى. قدم بعدها العمدة شرف الدين عمدة الجزيرة تقريره عن الموقف بين الأهالي ومدى الدمار الذى حاق بهم وتزايد أعداد القتلى والجرحى بينهم رغم احتوائهم بالغابات ..

عقد السيد الإمام اجتماعاً بمجلس شورى الأنصار وشرح لهم تطورات الموقف .

فى نهاية الأمر أجمع مجلس الشورى على ضرورة هجرة الإمام الهادى وتسليم الجزيرة حقناً للدماء - والإعداد لمعركة أخرى تكون حاسمة ضد أعداء الله والدين ..

وفى حوالى الساعة الواحدة فجراً غادر السيد الإمام الجزيرة أبا يرافقه :

- (١) العمدة عمر مصطفى حسن عمدة الشوال وخال الإمام . (٢) محمد أحمد مصطفى حسن خال الإمام . (٣) الفاضل الهادى المهدي نجل الإمام . (٤) عباس أحمد عمر جد الإمام . (٥) سيف الدين الناقى ملازم الإمام . (٦) محمد على يونس ملازم الإمام . (٧) محمد محمد الصادق الكارورى أخ مسلم . (٨) عز الدين الشيخ فضل أخ مسلم . (٩) عبد المطلب بابكر خوجلى

أخ مسلم. (١٠) سائق عربية النقل التي أقلت السيد الإمام ورفاقه إلى حدود الغابة ثم عاد ثانية بالعربة.

لقد اتفق الجميع على أن خسارة المعركة بالجزيرة أبا لا تعنى نهاية الحرب ضد أعداء الدين فالمعارك مستمرة والأنصار في حاجة ماسة لوجود الإمام يقودها في معاركهم ولا بديل لقيادته.

اجتمع بالإمام كبار رجال الأنصار فرادى ومجتمعين وكل منهم يناشد الإمام بالمحافظة على حياته إنقاذاً للأنصار.

اجتمع به الشيخ الكارورى وقال له: (هل من المنطق أن ننتظر القبض علينا هنا؟ أم الواجب علينا الخروج للاستمرار في المعركة من الخارج؟).

اجتمع به العمدة عمر مصطفى حسن والخال محمد أحمد مصطفى وذكرنا له هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه عليهم رضوان الله للحبيشة.

اتفق الجميع ولم يكن أمام السيد الإمام إلا الرضوخ لرأى الجميع.

فكانت الهجرة من الجزيرة أبا..

عملية الهجوم على المخلج بربك

وتقرر تمهيداً لتسهيل عملية خروج الإمام الهادى ومرافقيه من الجزيرة أبا القيام بعملية عسكرية محدودة كان الهدف منها هو أن تشغل تلك القوات المربطة بالجاسر بتلك المعركة الجانبية حتى تيسر للإمام ومن معه الخروج.. وهكذا تحرك المجاهد محمد صالح عمر مساء الأحد ٢٩ مارس وحسب المتبع في مثل هذه العمليات فقد تركت له حرية التصرف حسب الظروف التي تواجهه.

قرر قائد القوة علم القيام بهجوم مباشر على الهدف. لذلك فبمجرد عبوره الجاسر غيرت القوة اتجاهها عكس طريق المخلج للتصويه، اتجهت القوة شمالاً تجاه الخرطوم ولكن بعد مدة غيرت اتجاهها شرقاً حتى وصلت إلى قرية قفا بالجبال البيض، وهناك عسكرت القوة في الجبال المحيطة بها وتحرك محمد صالح عمر للاستطلاع ومحاولة نسف خطوط السكك الحديدية لمنع الإمدادات من الوصول للحامية.

عند مساء يوم الاثنين ٣٠ مارس تحركت القوة تجاه المخلج فوصلته بعد منتصف الليل بقليل، قام الشهيد محمد صالح عمر بتوزيع القوة لمجموعتين ٢٢ كانت مهمتهم مهاجمة المطار في ركب بينما قامت باقي القوة ٤٣ شاباً بالانتشار حول المخلج والهجوم عليه .

وفي بداية اليوم التالى ومع ظهور الخيط الأبيض فى السماء.. أصبحت القوة المهاجمة هدفاً واضحاً للمدفعات والدبابات الثقيلة .. وبدأت المدبحة .. انهمرت القذائف من المدفعات والدبابات ومن كل أفراد الحامية الموجودة بالمخلج على الشباب . تطايرت المنازل التى احتماوا بها واشتعلت فيها النيران، ورغم هذا الهول فقد صمدوا وتقدموا، استمرت المعركة الشرسة حتى حوالى الساعة ١٢,٣٠ ظهراً كان قد قضى على معظم المهاجمين .

كانت القوات تتخذ من المخلج ساتراً لها أثناء المعركة لذلك فبمجرد إطلاق النيران من الشباب اشتعلت النيران فى كميات الأقطان التى كانت موجودة به فدمرته تدميراً كبيراً رغم محاولات قوات مكافحة النيران ولمدة ٤ أيام متوالية بعد المعركة .

أصاب قذيفة دبابة المنزل الذى كان يختفى به الشهيد محمد صالح عمر فاشتعلت فيه النيران واحترقت جثته فلم تتعرف عليه قوات الحكومة وأصدرت نشرات للقبض عليه .

لم تتوفر المعلومات الكافية عن خسائر القوات الحكومية لكن بعض المشاهدين للمعركة قدروا خسائر القوات الحكومية بـ ١٥ بين قتيل وجريح .
بانهاء عملية المخلج انتهت معركة النظام ضد الأنصار بالجزيرة أبا..
استشهد فى عملية الهجوم على المخلج ٤٦ من شباب الأنصار، وبذلك وصل عدد شهداء المعركة من قوات الأنصار ٤٧٨ وقدر عدد الجرحى بحوالى ١٢٠٠ جريح .

عملية تسليم الجزيرة أبا :

في صباح يوم الثلاثاء الموافق ٣١ مارس ٧٠ ذهب بعض قيادات الأنصار لمقابلة قائد القوة الحكومية والذي كان يتخذ من منطقة حجر عسلاية مقراً لقيادة العمليات ضد الجزيرة أبا. قابلهم الرائد أبو القاسم محمد إبراهيم والعميد محمد أحمد أبو الذهب طلبوا منهما وقف القصف على الجزيرة وأبلغوهما استعداد الجزيرة للتسليم. طلب أبو القاسم حضور شخص معروف من الجزيرة للتفاوض معه. عاد الوفد للجزيرة وأبلغ السيد خالد فتحرك خالد لمنطقة حجر عسلاية حيث قابل أبو الذهب وأبو القاسم، طلبا منه تسليم الجزيرة في خلال ساعتين وتسليم الإمام، رد خالد بأن المدة غير كافية بالنسبة لمساحة الجزيرة وعدم وجود عربات للحركة داخل الجزيرة بعد تدمير القصف لها. أص أبو القاسم على الساعتين، عاد خالد للجزيرة وبدأ في محاولة إقناع الأنصار بالتسليم.. قابله الأنصار بمعارضة شديدة وصلت للاعتداء عليه من بعضهم، بذلت لجنة شئون الأنصار جهوداً مضنية لإقناع الأنصار بالتسليم وافقت أعداد من الأنصار على وقف القتال بعد أن أبلغتهم اللجنة بأن هذه هي تعليمات السيد الإمام قبل مغادرته للجزيرة. اضطر خالد للذهاب مرة أخرى لحجر عسلاية لإعطائه مهلة جديدة لأنه لم يستطع خلال الساعتين المرور على كل المواقع ولأن إقناع الأنصار بالتسليم يحتاج إلى وقت، أعطوه مهلة أخرى ساعتين قامت لجنة شئون الأنصار بتجميع الأسلحة عند منطقة الجاسر كما طلب أبو القاسم، أخفى معظم المقاتلين أسلحتهم ورفضوا تسليمها كما غادر البعض منهم الجزيرة بسلاحه ورفض تسليمه، استمر خالد واللجنة في الإقناع وجمع السلاح طوال يوم الثلاثاء وليلة الأربعاء وقد استطاعوا خلالها إقناع المقاتلين بوقف القتال .

عند ظهر يوم الأربعاء الموافق ١ أبريل ٧٠ دخلت قوة من المدرعات للجزيرة أبا، تجمع أهالي الجزيرة خارج القرية حسب تعليمات أبو القاسم محمد إبراهيم، عبرت قوة المدرعات للجاسر وبمجرد عبورها قامت بفتح النار على الأهالي المتجمعين في الأرض الفضاء عند مدخل البلدة. لقد كانت مذبحة قذرة

وغريبة لا تمت إلى أبسط قواعد الإنسانية بشيء، حقد أعمى بلا حدود، دبابات تطلق النار من مدافعها ورشاشاتها على نساء وأطفال عزل وبلا جريرة أو ذنب إلا أنهم أنصار يؤمنون بالله ورسوله. كانت المذبحة رهيبة استشهد فيها ما لا يقل عن ٥٠ من الأهالي العزل من السلاح خرجوا حسب أوامر أبو القاسم محمد إبراهيم «سفاح أبا» الذي فقد أبسط قواعد الشهامة والانضباط العسكري الذي عرف به الجندي السوداني.

لقد قرر السيد الإمام تسليم الجزيرة حقناً لدماء هؤلاء البؤساء فما هو السفاح المجرم يهدر دمه بلا سبب أو مبرر، قامت القوات المرافقة للدبابات بعمل حفرة في نفس المنطقة بواسطة الحفارات والجرافات دفنت فيه هذا العدد من البشر ولم تفرق بين جريح أو قتيل بل دفنت الجميع ومنهم من كان حياً يرتفع أنينه من ألم الجراح. لكم الله يا أنصار الله أتباع المهدي لقد حاول الإمام حقن دمائكم الزكية بالتسليم لكن ها هو التسليم كان وبلاً عليكم ليت الإمام قرأ صفحة الغيب لكان قد أمر بالاستمرار في القتال فقد كان القتال رحمة بكم وبه.

أحداث الكرمك

وتحرك ركب الإمام فجر الثلاثاء حسب ما رواه ابن الإمام المرحوم الفاضل الذي كان مرافقاً في تلك الرحلة، لقد اختار الركب طريقاً غير مطروق من الجزيرة أبا إلى مدينة الكرمك التي تقع على الحدود الأثيوبية - السودانية فكان المسار آمناً طوال الطريق حتى وصلوا بالقرب من قرية أونسه حوالى الساعة الواحدة والنصف ظهراً فشهدهم أحد المواطنين ويدعى أبو بكر عبده فرح وهو أحد عمال الطرق الذين يعملون بتلك المناطق فحيوه بتحية الإسلام ورد بمثلها ثم سأله عن أقرب منطقة يمكن أن يجدوا فيها ماء إذ أصابهم الظمأ ونفذ زادهم وماؤهم، فأرشدهم ذلك المواطن إلى قرية أونسه التي كانت تبعد حوالى ميلين من ذلك الموقع فتوقفوا تحت إحدى الأشجار الظليلة وجلسوا هناك في تلك المنطقة الوعرة وصرفوا العربة التي كانت معهم لأن ما تبقى من مشوار حتى الحدود الأثيوبية يمكن قطعه مشياً على الأقدام وخاصة أن تلك

المنطقة الوعرة لا يمكن استخدام العربية فيها، فجلس الإمام ومعه خاله محمد حمد مصطفى والعمدة عمر مصطفى وابنه الفاضل ومرافقه سيف الدين الناجي مستظلين بالأشجار الكثيفة في تلك المنطقة الوعرة وتحركت البقية الشيخ محمد صادق كارورى وعبدالمطلب بابكر خوجلى وعباس أحمد عمر جد الإمام الهادى في اتجاه القرية لجلب المياه.

نعود للمواطن الذى كان قد شاهد العربية التى تقل الإمام الهادى ومرافقيه الذى يبدو أنه لم يتعرف على شخصية الإمام الهادى، ورغم ذلك فقد قام بإبلاغ السلطات الإدارية في مركز الكرمك عن وجود بعض ما أسماهم بمهرى السلاح وذلك لاشتهار المنطقة التى شاهدتهم فيها بتهريب السلاح من أثيوبيا للسودان، الأمر الذى حدا بقوة الشرطة الموجودة في تلك المنطقة والتى كان على رأسها الملازم مختار طلحة متابعة نشاط التهريب بالتحرك الفورى نحو المكان الذى حدده المواطن، فوصلت تلك القوة إلى موقع الإمام الهادى والمجموعة التى كانت معه والذين كانوا قد انتهوا لتوهم من صلاة الظهر بعد أن استراحوا قليلاً من عناء السفر ليقوموا بمحاصرتهم ومن ثم تفتيشهم إلا أنهم حتى تلك اللحظة لم يتمكنوا من معرفة الإمام الذى كان يضع شالاً على وجهه، وأثناء تفتيش الإمام ومجموعته قام ابنه المرحوم الفاضل بمقاومة عنيفة أدت إلى تدخل الإمام لحماية ابنه وفض النزاع إلا أن أحد الجنود بادر بإطلاق طلقة من بندقيته أصابت الإمام في فخذه اليمنى فجلس أرضاً بعد الطلق النارى فصاح ابنه قائلاً بحدة (من ضربتموه هو الإمام الهادى) ليقع الجميع في حالة اندهاش وذعر حقيقى وهم يشاهدون الإمام وقد امتلأ جليابه بالدماء على الرغم من التماسك الواضح الذى بدا على وجهه. فتساءل مرافقو الإمام بانزعاج واضح عن كيفية التصرف والإسراع بإسعاف الإمام، فكان تصرف قائد المجموعة غريباً، إذ قام بعزل الإمام من مجموعته إلا من خاله محمد أحمد مصطفى ومرافقه سيف الدين الناجى ووضعهم تحت حراسة خمسة من رجاله المسلحين أما البقية فقد اقتادهم معه بعد أن قيدهم بالجنائزير إلى مدينة الكرمك بحجة لإرساله عربية أكبر لكى تقل الإمام، أما البقية وأقصد الشيخ محمد صادق كارورى والجد عباس أحمد عمر وعبدالمطلب بابكر خوجلى كان فقد ألقى القبض

عليهم بواسطة مجموعة من العسكر المتحركين في الموقع نفسه لحماية القوة الأساسية. وأثناء عودة الملازم مختار طلحة وقوته والأسرى إلى الكرمك التقوا بضابط المجلس محمد حسين بامسيكه الذي كان أيضاً على رأس قوة خرجت في أعقاب القوة الأولى، فأوضح الملازم مختار طلحة حقيقة الموقف لضابط المجلس الذي يبدو أنه قد ارتاح لما حدث فأصر على مواصلة السير حتى يقف بنفسه على حقيقة الأمر بعد أن قام بتوجيه الملازم بإرسال برقية إلى الدمازين حامية النيل الأزرق ومن ثم إلى الخرطوم لإطلاع المسئولين على الموقف. وفور وصول ضابط المجلس وجد روح الإمام الشهيد قد فاضت إلى بارئها بينما كان مرافقه سيف الدين الناجي واضعاً رأس الإمام الشهيد على فخذه وهو جالس على الأرض يترتل القرآن أيضاً. طلب ضابط المجلس بغلظة واستفزاز واضح من سيف الدين الناجي أن يكشف وجه الإمام الشهيد، وأن يقوم بوضع رأس الإمام الشهيد على الأرض فواصل سيف الدين ترتيبه من دون أن يكثر بما قاله ذلك الرجل فما كان من الأول إلا أن ركله برجله على رأسه فما كان من سيف الدين الناجي إلا أن ردد بصوت عالٍ الله أكبر والله الحمد ثلاثاً فرد عليه ضابط المجلس بثلاث طلقات نارية من مسدسه في صدره ليلقى به أرضاً بجوار الإمام الشهيد وأصدر تعليماته إلى أحد الجنود بأن يخلص عليه فرفض الجندي ذلك ثم وجه جندياً آخر فنفذ الأخير التعليمات وأرسل في غدر طلقة إلى قلب ذلك المجاهد فانقبضت يده ثم انفرجت ولفظ أنفاسه إلى جانب إمامه الشهيد الذي بقي إلى جواره في أحلك الظروف وأصعبها كدالة قوية على تمسكه بالعقيدة السمحة والبيعة الحقة .

جاء مجلس قيادة الثورة بالخرطوم على البرقية التي كان قد أرسلها الملازم طلحة مقتضباً خلاصته الاستعجال بالقضاء على الإمام ومن معه خصوصاً وأن القيادة لم تكن تعلم في تلك اللحظة بخبر استشهاد الإمام ومرافقه، ونتيجة لذلك تحركت القوة من حامية الدمازين برئاسة الملازم تيراب الغالى متجهة من الدمازين صوب الموقع الذي كان يوجد فيه الإمام لتنفيذ تعليمات القيادة بالقضاء على الإمام ومن معه، إلا أنه وفي منتصف الطريق التقوا بالقوة التي

كانت تصاحب ضابط المجلس ومعها جثمان الإمام ومرافقه سيف الدين الناجي والخال محمد أحمد مصطفى الذي كان لا يزال على قيد الحياة ، الأمر الذي أدى لقتله بأسلوب وحشي اتسم بكثير من القسوة والخسة معتقدين أنهم بذلك يقضون على الشخص الوحيد الذي رأى بأمر عينه استشهاد الإمام ومرافقه ليقوم بعد ذلك بدفن خال الإمام الشهيد ومرافقه في قبر واحد والإمام الشهيد في قبر وحده في منتصف الطريق بين الدمازين والكرمك وفي مكان وعمر يسمى خور الدور متوهمين بذلك أنهم بفضل ما اقترفوا من جرم في حق ذلك الكيان بقتل إمامهم الشهيد قد يتسنى لهم إضعاف وتلويب ذلك التراث الإسلامي الذي قام بإرسائه الإمام محمد حمد المهدي حينما خرج يقاتل ومجاهدوه تلك القوى الاستعمارية الغاشمة بشهادة أن لا إله إلا الله ليقيم دولة إسلامية على أنقاض تلك الحفنة الحاقدة من أعداء الله .

لقد استبسل الإمام الشهيد الهادي المهدي وقاتل في ثبات وشجاعة فأقبل ولم يدبر حتى لاقى ربه راضياً مرضياً في سبيل ما يؤمن به من عقيدة ومبادئ إسلامية وعربية في مواجهة قوى الشرك والإلحاد التي تسلطت في غفلة من الزمن على أرضنا وديارنا الطيبة متوهمة أنها من خلال ذلك تستطيع أن تقضي على التراث والعقيدة .

كيف واجهنا الحياة بعد مقتل الإمام

لم تكن حياتنا حياة سادة أو أولاد سادة مرفهين مدللين كما يعتقد البعض ، أو أن نكون عشنا عيشة سهلة رغدة من كنوز مدفونة ، ورثناها أباً عن جد من عرق وكند المهاجرين من الأنصار للجزيرة «أبا» كما يحلو لبعضهم اتهامنا . وفي الحقيقة ليس هذا ولا ذاك ، فقد واجهتنا صعوبات حقيقية في تأمين المأكل والمشرب ، شأننا شأن أى أسرة سودانية فقدت واليها . وقد ازداد الحال سوءاً بمصادرة نظام مايو كل ممتلكات الأسرة حتى الملابس والأشياء الخاصة التى تخص والدنا الإمام الهادى .

كنا ساعتها دون السن القانونية ولم نكن تأهلنا التأهيل العلمى المناسب لكسب العيش الكريم ، وبتنفيذ المصادرة على كل ما يملك والدنا الإمام ، أصبحنا نعانى ضيقاً فى كل شيء . وبدأنا وقتها بتقليل وترشيد الإنفاق العائلى فيما عدا الضرورى منه . وكنا نصبو لتأهيل أنفسنا علمياً ، شأننا شأن أى مواطن طموح لتأمين وترتيب عيش كريم . وهنا بدأت تراود نفسى آمال وطموحات فى اختيار الدراسة المهنية المناسبة التى تمكننى من ذلك حين تخرجى من الجامعة . فاخترت دراسة الطب . كانت تراودنى تلك الأفكار وأنا فى العاشرة من العمر . ولكن أين أنا من الجامعة ؟ وأين أنا من الدراسة المتواصلة والنبوغ لنيل ذلك الهدف . وظننت ساعتها أنها أحلام يقظة سرعان ما تختفى بتغيير ظروفى ، ولكن وجدت نفسى فى المسار ، على بركة الله واصلت المشوار وكان لى ما أردت .

كان موقف الأنصار معنا كريماً طوال فترة المحنة ، فقد ظل جميعهم بين الحين والآخر يأتون لزيارتنا بالمنزل فى ودنوباوى بأمر درمان ويسألون عن أحوالنا وأحوال الإمام الغائب ، ويتركون لنا عند نهاية الزيارة ما تيسر من شوات الذرة السودانية مما ساعدنا كثيراً على مواجهة تلك الأيام الصعبة ، وأذكر أننى قلت لأحدهم : لماذا كل هذا العناء والتعب ؟ فنظر لى فى عطف شديد قائلاً : « نحن نجود بالروح ناهيك عن زاد الدنيا الزائل هذا » . وهكذا كان شعور عامتهم .

كان إعلام مايو شرساً شراسة الحكم . فقد ظل ذلك الإعلام ، وقبل بداية

معارك الجزيرة أبا، يوجه سمومه المحمومة ضدنا وضد كيان الأنصار عامة، ونفذت أجهزته الإعلامية المقروءة والمسموعة والمنظورة حملة إعلامية سخيفة ومن صنع خيال سقيم، ملأته بالكاذيب الملفقة والأطروحات والافتراءات الباطلة عن أسرتنا وعن والدي الإمام، اتهمته فيها بالدجل والغش والعيش على حساب البسطاء والسذج المخدوعين وتضليلهم... إلى آخر تلك التعبيرات الافتراضية التي كان ينعتق بها اليسار ومن والاه. كان هدف الإعلام وقتها تضليل المواطن والرأي العام السوداني لتبرير ما فعلوه بكيان الأنصار في الجزيرة أبا وودنوباوى، وقد تحملنا كل ذلك بصبر وجلد شديدين.

باتت لى واضحة، آثار تلك الحملة الإعلامية الشرسة حينما التحقت بعد رجوعنا من الجزيرة أبا بمدرسة الركابية الابتدائية في أم درمان في شهر آب (أغسطس) ١٩٧٠. فقد واجهت جواً غير مريح وعدائياً أحياناً من بعض زملائي التلاميذ في تلك المدرسة، كنت أسمع لحظتها بعضهم يردد افتراءات الإعلام الكاذبة ضدنا وكأنها حقيقة ثابتة، تارة في مواجهة وجهاً لوجه بينى وبينهم، وأخرى من وراء ظهري بالهزم واللمز. وليس هذا فحسب، بل إن بعضهم كان يتجرباً في توجيه بعض الأسئلة المخرجة لى. وحينما أردت على تلك الأسئلة ببرود تام ألحظ انطباعات الدهشة والذهول في وجوه بعضهم، بينما يتبادى بعضهم في تحد سافر بتصديق ما قالته أجهزة الإعلام. وليت الأمر وقف عند أقرانى التلاميذ، حيث كان بعض المدرسين، الذين لا يخافون الله ولا يخشون لقاءه، وهم قلة عفا الله عنهم، يبادرون بالتلميح الموجه أثناء الحصص الدراسية بسرد قصص وحكايات من شأنها أن تدعم مزاعم الإعلام المنشورة ضدنا، ويصل الإحراج غايته بالتفات من طلاب الفصل نحوى بابتسامات خبيثة تأكيداً لكلام أولئك المعلمين. ولكن الحمد لله واصلت دراستى في اجتهد بالغ وتفوق مرموق. وساعدنى في تحمل تلك المحنة ما وجدته من عطف وحنان وتشجيع من والدتى وأخواتى وابتسامات رجالات الأنصار نحوى بالعطف والرضا حينما يرونى أحمل شنطة كتبى على كتفى وأسرع الخطى نحو المدرسة. أضف إلى هذا أن عدداً من زملائي التلاميذ وقف معى في تزامن قوى ضد كل الكائدين مما كان له الأثر الواضح في تجاوز تلك المرحلة بنجاح.

لقد شاهدت سنوات دراستى من المرحلة الابتدائية ١٩٧٠ حتى تخرجى من كلية الطب بجامعة الجزيرة ١٩٨٦ عدداً من الأحداث السياسية في مسيرة.

حكم مايو، بدأت بانقلاب هاشم العطا (الأحمر) في ١٩٧١، ثم أحداث وتظاهرات الطلاب في شعبان ١٩٧٣، ثم انقلاب المقدم حسن حسين عثمان في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٥، وحركة ٢ تموز (يوليو) ١٩٧٦ بقيادة العميد الشهيد محمد نور سعد وشقيقى نصر الدين الهادى المهدي، ثم أحداث المصالحة الوطنية بين نظام مايو والصادق المهدي ١٩٧٧، ثم أحداث نيسان (أبريل) ١٩٨٥ التى انتهت بسقوط حكم مايو.

تطلعات مشروعة

كان ينتابنى أثناء أى من تلك الأحداث، فيما عدا انقلاب هاشم العطا، شعور غريب كنت أتطلع فيه إلى تغيير جديد، وإلى شيء جديد فيه خير كثير ووفير للوطن. فقد ظننت ساعتها أن سادة مايو هم بداية ونهاية الظلم والفساد ولا بد من إقصائهم. كنت أتطلع بعد أى من تلك الأحداث إلى عمل قومى كبير يؤمن للسودان وحدته ومسيرته نحو التقدم والازدهار في جو ديمقراطى تسوده الشورى، وأتطلع في شغف شديد إلى معرفة أدق التفاصيل وردود الفعل على قرار تصفية الجزيرة أبا عسكرياً بظلاله المحلية والخارجية، ومعرفة أدق لحظات حركة أنى الإمام الشهيد حين استشهاده. كنت أريد كل ذلك مكتوباً في محضر موثق للتاريخ، وأن يترك لنا كأبنائه وأنصاره الذين لازالوا على بيعته أن نقرر ما نفعل بالقتلة، هل نقدمهم لمحاكمة، أم ننذر دم الوالد الإمام الشهيد فداءً للديمقراطية والإسلام؟

ولكن هيهات فلم تفعل الديمقراطية الثالثة شيئاً من ذلك. فالشورى انتهت إلى خلاف، ومجازر الأنصار في الجزيرة أبا وودنوباوى أصبحت في ذمة التاريخ، وتفاصيل قرار ضرب أبا وما حدث لأنى الإمام لم يدركها أحد. كل الذى فعلوه هو تحريك رفاته من خور الدوم بالدمازين إلى قبة الإمام المهدي في أم درمان إعلاناً لموته والسعى وراء اختيار خليفة له. وأدركت ساعتها أننا على موعد لاختيار إمام جديد. أما عن جريمة الاغتيال فقد اكتفوا بالقبض على الصغار وتركوا الكبار صناع القرار. قبضوا على نفر من عساكر الصف وصغار الضباط الذين كان دفاعهم عن أنفسهم بادياً على وجوههم، حيث قالوا أنهم نفلوا التعليمات، وأنه لم تكن بينهم وبين الإمام عداوة، أو تنازع في حق أو مال أو سلطة حتى يعتلوا عليه. ويقتلوه.

أدركت ساعتها أن الأمور ليست كلها أبيض أو أسود أو صواباً أو خطأ إنما هناك تجاوزات، بعضها لطمس الحقيقة جزئياً أو كلياً، وهكذا كان مصير ذلك الشعور الغريب الذي كان يتتابنى عقب كل حدث .

بدأ انقلاب الرائد هاشم العطا ظهر يوم ٢١ تموز (يوليو) ١٩٧١ وقد كنت لحظتها خارج منزلنا في ودنوباوى بأمر درمان عندما سمعت رجلاً على قارعة الطريق يقول في صوت عال، أن انقلاباً عسكرياً قد حدث في الخرطوم وأن الشيوعيين استلموا البلد، وما أن وقعت في أذى كلمة شيوعيين حتى هرولت إلى داخل الدار فوجدت نفسى وجهاً لوجه مع أمى، فقلت لها في نبرات صارمة ما سمعت وكررت لها عبارة «الشيوعيين استلموا البلد» فكان جوابها «عاد كان كله البلد خربت» وصمتنا. وتوجهنا إلى المدياع فلم نسمع شيئاً غير اضطراب وذبذبات صوتية لا معنى لها، حتى أتانا اليقين عبر التلفزيون والراديو في بيان أذاعه الرائد هاشم العطا بنبرات مضطربة غير متماسكة، فوقع بيانه ميتاً على عامة الشعب السوداني بينما سارع اليساريون، وهم قلة، في تجمعات محدودة يهتفون بحياة الاشتراكية وضد جعفر نميرى وتسلطه إلى تلك الهتافات .

تجمع رأى أهلى لحظتها بأن الذى حدث هو صراع بين أركان نظام مايو . وعموماً فقد اكتفينا بالمثل السوداني القائل «ما خاصينا فى البنا ولا البناول الطوب» فكلاهما أحق من الآخر. انتهى انقلاب العطا بنكسة فاجعة على الشيوعيين حتى أن الأستاذ فؤاد مطر كتب كتاباً عن الحدث بعنوان «الحزب الشيوعى نحروه أم انتحروا؟» . وفى كلتا الحالتين كانت الضربة قاصمة فلم يستعد منها الشيوعيون صحتهم فى السياسة السودانية حتى اليوم، ورأوا عملياً ترجمة شعاراتهم التى رفعوها من «تقليم أظفار الرجعية» والمطالبة «بالنصفية الدموية للرجعية» تحدث لهم وشربوا من الكأس التى سقوا منها الأطفال والنساء والشيخوخة فى مجازر أبا وودنوباوى .

أحداث ٢ تموز (يوليو)

أما أحداث ٢ تموز (يوليو) ١٩٧٦، فبغض النظر عن نهاة القرار السياسى بالشروع بها، أبلى رجالات الأنصار بلاء حسناً شهد به الجميع. فقد أتوا أفراداً وجماعات شاكين السلاح للأخذ بثأرهم من الذين حصلوا آباءهم وإخوانهم ونساءهم وأطفالهم حصداً في أبا وودنوباوى باسم تصفية الرجعية والتخلف والطائفية، وردموا عليهم التراب في قبور جماعية من دون رحمة أو شعائر دينية وبعضهم لم يكن لفظ أنفاسه بعد. لقد بدا واضحاً أن استمرار القصف المدفعى والجوى للجزيرة أبا من دون هوادة يعنى بالضرورة تصفية سكانها عسكرياً وليس تهديداً بالضغط عليهم للتنازل عن مطالبهم بعودة الجيش إلى الثكنات وإجراء الانتخابات وإزالة اللافتة الشيوعية عن الحكم..

لملخ .

لحظتها نصح مولانا الكارورى وآخرون الإمام الهادى بالهجرة من الجزيرة أبا إلى موقع آخر يعيدون منه الكرة، فقد كان واضحاً أن أبا جزيرة معزولة في النيل يصعب الدفاع عنها، خاصة بقطع السلاح التى كانت بين أيديهم، وأقنعوه أن الهجرة في الدفاع عن العقيدة والدين سنة، فقد هاجر الرسول ﷺ منها لأذى مشركى قريش إلى المدينة، وأن الإمام المهدي حينما واجه الأتراك بالتصعيد العسكرى الكبير بعد هزيمته لأبى السعود هاجر على جناح السرعة من الجزيرة أبا غرباً إلى منطقة قدير في جبال النوبة وبدأ استعداداته العسكرية من هناك وكان النصر حليفه. وبعد أخذ ورد في الأمر وتقويم للموقف من كل جوانبه المدنية والعسكرية بدأوا في تنفيذ أمر الهجرة ونجحوا في اختراق صفوف الجيش المتراصة حول الجزيرة أبا، وواصلوا سيرهم بالعربات حتى منطقة الكرمك على الحدود الأثيوبية والتي حدث فيها ما حدث حسب السرد السابق. فقد أذاع راديو الحكومة أن الإمام ومن معه قتلوا في تراشق نارى بالرصاص مع جنود بوليس نقطة الكرمك. وقد وصف الراديو الإمام بكل ما هو قبيح من دون مراعاة لحرمة الموت .

وصمت شيوخ الأنصار الذين سمعوا الخبر من الراديو في ذهول شديد،

وقالوا ساعتها بأنها خدعة من الحكومة ولا بد من الهجرة واقتفاء أثر الإمام وخاصة أنهم هم الذين أيدوا هجرته وقبلوا معه القرار .

التقط قفاز المهاجرين والهجرة ، السياسى السودانى المعروف الشريف حسين الهندى يرحمه الله ، وجعل منهم شعلة متقدة للأخذ بثأر الإمام وأنصاره الذين أيدوا عسكرياً في أبا وودنوباوى . فقد كان الشريف صديقاً وفاقاً للإمام الهادى رغم انتائهما الحزبى المختلف ، وتعاهد الرجلان على مقاومة نظام مايو واستيلاء العسكر على السلطة بانقلاب عسكرى ، ولقيا ربهما وهما على ذلك العهد . سعى الشريف وقتها لدعم أثيوبيا لمعسكرات الهجرة الأنصارية فوجده ، وزاد الدعم موقف المغفور له الملك فيصل بن عبدالعزيز الذى غضب لتصفية نماذج إسلامية جيلة . وأخيراً لأسباب سياسية بحته وجد الشريف حسين الهندى دعم ليبيا ، وأعان الشريف في مهمته الكبيرة والخطيرة الدكتور عمر نور الدائم والأستاذ عثمان خالد مضوى ونفر غير قليل من المقاتلين الأوفياء . وما أن استقر الأمر في معسكرات الأنصار في أثيوبيا حتى بدأوا للتخطيط في تأسيس معارضة سياسية عسكرية منوطة لحكم مايو قوامها العمل والميدانى رجالات الأنصار وقوام فكرها جبهة سودانية وطنية عريضة تضم كل السودانين عدا اليسار .

كان ذلك موقف المعارضة السودانية يوم أن انضم لها الصادق الصديق المهدي في بداية عام ١٩٧٥ بعد إطلاق سراحه من الاعتقال ، فبدأوا جميعاً التخطيط لعملية الغزو المسلح لإسقاط نظام مايو في عقر داره بقوة السلاح وعلى أيدي رجالات الأنصار الذين تم تدريبهم على حمله . وتسلسل المقاتلون المدربون أفراداً وجماعات إلى مسرح العمليات في العاصمة المثلة ولم يكن أحد في الداخل ، عدا قلة ، يعرف المخطط أو تفاصيله .

كانت الحياة تسير عادية في دارنا إلى أن فوجئنا ذات مساء بوجود شقيقى نصر الدين وسطنا ، فقد أتى على غير مواعيد الأجازة للجامعات الألمانية التى

كان يدرس فيها، كذلك أتى من دون إنذار أو إعلان مسبق. وما أن هللتنا لوصوليه حتى طلب منا الصمت، فانزعجت والدتي وظننت ساعتها أن شيئاً غير كريم حدث له، ولكنه سارع بقوله، إنه أتى في مهمة كبيرة تستهدف إسقاط حكم مايو، وسألناه في انزعاج شديد، وكيف ذلك؟ فأجاب: سيتم ذلك في خطة عسكرية محكمة هو أحد قياداتها مع آخرين. وطلب منا الصمت وعدم إعلان وصوله حتى إلى أقرب الأقربين، ثم تحرك نحو غرفته في الطابق العلوى من المنزل وظل ملازماً لها لا يرحلها إلا ليلاً ويرجع إليها في الساعات الأولى من الصباح.

كانت إجابات نصر الدين لاستفساراتي مقتضبة للغاية ولكن لكثرة الاستفسارات والإجابات استطعت أن أدرك أبعاد المخطط فسكت وتميت له التوفيق.

وكانت بداية المعركة المخطط لها في الصباح الباكر من يوم الجمعة ٢ تموز (يوليو) ١٩٧٦ ضربة بضربة ولكمة بلكمة. فقد بدا واضحاً، ولأسباب يعرفها المخططون، أن الخطة استهدفت معسكرات الجيش وكبار الضباط ودار الهاتف الذى احتله شباب الجبهة الإسلامية المسلح ودار الإذاعة. كذلك استهدفت الخطة تحركات محسوبة لاحتلال المطار حيث يصل جعفر نميرى على متن طائرة الخطوط الجوية السودانية وفق توقيت معلوم. ولكن لقرار مكتوب، لم تكتمل الإجراءات المخططة لاعتقاله حيث حطت طائرته على أرض المطار ساعة قبل مواعيدها مما أربك خطة المقاتلين أو أربكه هو نفسه، فاختفى في عربة صغيرة إلى دار أحد أصدقائه ونجا من الاعتقال وظل مختفياً ليومين بعد استعادة قواته الهيمنة على العاصمة المثلة.

انسحبت قوات المعارضة بعد أن فشلت في تحقيق هدفها، وتركت خلفها أكثر من ٤٠٠ قتيل وجريح، وأقام نميرى مقبرة لشهداء قواته ومنح أسر الشهداء ضمانات كبيرة لمواجهة مستقبل الحياة الصعب بينما لم تهتم الديمقراطية

الثالثة عند استلامها السلطة بعمل شيء لشهادتها الذين فقدتهم لاستعادة الديمقراطية .

المصالحة الوطنية :

سمعنا بعد عام تقريباً من أحداث تموز (يوليو) ١٩٧٦ أن مصالحة قد تمت بين جعفر نميري والصادق المهدي وتفاءلنا بالأمر، فعسى أن تمتص المصالحة الغبن الذي لحق بالأطراف المتقاتلة وتزيل الأحقاد وتمسح الآلام وتستقطب كل السودانيين لعمل قومي إيجابي موحد. ولكن خاب فآلنا، فقد بدأت المصالحة متعثرة إلى أن انتهت بالقطيعة بين نميري والصادق مما عرض الصادق للأسفار المتصلة خارج السودان ثم أخيراً الاعتقال التحفظي. والمدهش حقاً في الأمر، أنه وحتى هذه اللحظات لم تبرز وثيقة واحدة ممهورة من الطرفين توضح اتفاق المصالحة. ويبدو لي أن الأمر لم يَعد أن يكون اتفاق «جنتلمان» وغير مكتوب بين الصادق ونميري، ولعل نميري فهم منه انه عفو عام عن جماهير الأنصار التي أقلقته مضاجع حكمه بينما اعتبره الصادق توجهاً نحو مصالحة عامة ومشاركة تامة في الحكم .

وفي عام ١٩٧٩ جلست لامتحان الشهادة السودانية ونجحت فيها بمرور عال مكنتني من الالتحاق بكلية العلوم بجامعة الخرطوم . وبعد قضاء العام الأول في تلك الدراسة شعرت أنها لا تنفي طموحاتي التي ملأت نفسي في دراسة الطب . وما أن أتت الفرصة مواتية في منحة دراسية من العاهل الأردني الملك حسين للدراسة الطب في الجامعة الأردنية حتى توجهت إلى هنالك . بعد قضاء عام في جامعة الأردن كاتبت كلية الطب بجامعة الجزيرة بأمر درمان في السودان فقبلت تحويلي والتحق بها حيث تخرجت كطبيب امتياز في شباط (فبراير) ١٩٨٦ وبذلك حققت حلماً كبيراً .

ردود الفعل للمقالات التي صدرت بمجلة التضامن

ظهرت العديد من ردود الفعل على الحلقات المنشورة بمجلة التضامن ولعل أهمها مجموعة من الأسئلة والاستفسارات وجهها الأستاذ إبراهيم عبد الله الغرباوى السودانى المقيم فى ليبيا وهى :

ثمة أسئلة ملحة محورها دائرة المهدي وحزب الأمة لن تكون فى إمكانية الدكتور الصادق الهادى المهدي من طرحها فى خضم مذكراته على صفحات مجلة «التضامن» الغراء ولكن أود باقتضاب التنويه إلى بعض الأسئلة لإثراء المواضيع التى تناولها الدكتور ، وكذلك لإعطاء المذكرات صبغة المراجعة السياسية الحية لحزب الأمة ومساهمته فى الحياة السياسية منذ تولى السيد عبد الرحمن المهدي قيادة الحزب وطائفة الأنصار ويمكن تلخيص الأسئلة فى الآتى :

لماذا كُرسَت القيادة لحزب الأمة فقط من عائلة المهدي المالكة ولماذا تم تهميش دور عائلة عبد الله التعايشى الرجل الأقوى فى نجاح الثورة المهدية؟ ولماذا أحجم أبناء الخليفة عن المشاركة الفعالة فى تطوير حزب الأمة وما هى الأسباب التى ساهمت فى تبني أبناء الخليفة عبد الله أمثال الدكتور عز الدين المهدي وداود الخليفة وغيرهم فى انتقاد سياسة عائلة المهدي وأسلوب الهيمنة؟

لماذا حاول السيد عبد الرحمن المهدي والإمام الهادي المهدي المحافظة على سياسة القمة القيادية المثقفة المؤهلة والقاعدة الجماهيرية الأنصارية الأمية الفقيرة؟ وهل هو تطبيق حى للمثل العربى المعروف «جوع كلبك يتبعك»؟

ما هى أسباب الخلاف السياسى العميق بين الصادق المهدي والإمام الهادي عبد الرحمن (والد كاتب المذكرات) ولماذا قاوم الإمام الهادي سياسة الصادق المهدي التطويرية وتحديث حزب الأمة بمزيد من الحث على تعليم أبناء الأنصار وردم الهوة السحيقة بين القمة المتعلمة فى الجامعات البريطانية والقاعدة الأمية المفعمة فى وحل التبعية المطلقة؟

لماذا لم تسارع دائرة المهدي رغم الثروات التى بحوزتها فى تطوير الجزيرة أباً وإقامة المدارس والمعاهد الدينية علماً بأن الأنصار أكثر الفئات الاجتماعية حباً

للدين وأكثر شغفاً للعلم رغم أن الجزيرة أبا كانت تعيش في وحل الأمية .
لماذا حاولت عائلة المهدي الاستحواذ على أموال دائرة المهدي علماً بأن
بعض الأموال الاستثمارية هي محصلة جهد وعرق الأنصار الفقراء الذين عملوا
بسقاء غريب في قطع الأشجار والأخشاب التي استعملت في الكمائن الطوبية
لإيفاء المقاولات في عصر الحكم الثنائي حيث تعتبر بداية القطرة في ثراء بيت
المهدي الثائر السوداني الاجتماعي الذي لم يترك أى أموال ورثة لأبنائه حيث
مات فقيراً عفيفاً بينما عاش ويعيش أحفاده وأبنائه في تنعم ورفاهية . والطرف
الثاني من قاعدة تجميع المال لدائرة المهدي هي أموال الزكاة والصدقات التي
تجمع من أغنياء الأنصار في غربي السودان المعطاء الذي كان لنصيبه المزيد من
التجاهل ، والفقر والأمية . ولم تحاول دائرة المهدي وحزب الأمة القضاء على
فقر الأنصار خاصة المقيمين في الجزيرة أبا والمشاريع الزراعية التابعة للدائرة .
لماذا اعتمد حزب الأمة على بعض الشخصيات اللامعة مثل محمد أحمد
محبوب علماً بأنه لم يكن يوماً يؤمن بالمهدية والأنصارية بل يعتبرها تحفة من
آثار الماضي .

أم كانت من نتائج وإفرازات المحافظة على القيادة السياسية السودانية تحت
كل مسمى ؟

ما هي الأسباب التي تساهم في تكريس الأنصار في تلاوة راتب المهدي
وعلم توسيع دائرة الاطلاع للفقه والأحاديث حتى يتمكن المسلم الأنصارى
من توسيع مداركه الدينية في المذاهب المختلفة بدلاً من القوقعة في كتيب
(الراتب) الذي يحمل صوراً لزعماء عائلة المهدي ومع قليل من الآيات
والدعوات المكررة ؟ وهل هذه النتيجة إفراز لقلّة المستوى التعليمي الديني
للإمام الهادي المهدي وعبدالرحمن المهدي اللذين لم يأخذوا إلا قسطاً زهيداً من
التعليم الإسلامي المتطور رغم التمتع بلقب الإمامية التقليدية ؟

لقد ساهمت منظومة حزب الأمة السياسية في هجرة أبناء الأنصار
والدخول في هيئات وأحزاب مثل الحزب الشيوعي والبعث الاشتراكي والجبهة

القومية الإسلامية، ويمكن إطلاق صفة الأحزاب الهرمة التي دبت فيها الشيخوخة في أوصالها ولكن كيف حافظ حزب الأمة على المقادير السياسية في السودان؟ وكيف يمكن كذلك من تلميع صورة الحزب لتكون أكثر نضرة وشباباً؟

لماذا حاول زعماء حزب الأمة من عائلة المهدي التأكيد من أن الإمام الهادي حي وسوف يعود وأنه عيسى المسيح وأنه المنقذ الوحيد - رغم أن المعروف أن الإمام الهادي قتل في ١٩٧٠ - ولماذا حاول ولي الدين ونصر الدين الهادي المهدي من تكريس هذه المفاهيم الخاطئة في أذهان الأنصار المقيمين في معسكراتهم في أثيوبيا، وهل هي بمثابة توظيف سياسي اقتصادي للمعونات التي كانت ترسل لتلك الفئات لكي تلوم في معسكراتهم زهاء تسعة عشر عاماً.. وما هي التعويضات التي منحت لعائلات الأنصار الذين ماتوا في أحداث الجزيرة أبا وودنوباوي في آذار (مارس) ١٩٧٠؟

حديثاً: لماذا يحاول حزب الأمة بقيادة مبارك المهدي توقيع اتفاقية بين حزب الأمة وحركة تحرير السودان بقيادة العقيد جون قرنق - علماً أنهما طرفان نقيضان في المفاهيم الدينية والسياسية - ومن نتائج الاتفاق سوف يكون غرب السودان هو الخاسر الأعظم نسبة لأن جميع أو معظم الجنود في الرتب الدنيا في الجيش السوداني من غرب السودان وكذلك يزج ميليشيات حزب الأمة في أتون الحرب وسوف يدفعون الثمن، علماً أن معظم المنضوين في الميليشيات كذلك من غرب السودان!! لذا ما هي النقاط الاستراتيجية في الاتفاقية الحديثة؟

وإلى اللقاء في الايضاح مع أسئلة أخرى مع الشكر،،،

إبراهيم عبدالله الغرابوي

(سوداني)

طرابلس - ليبيا

رسالة الدكتور الصادق الهادي المهدي

الأخ الأستاذ فؤاد مطر

بعد تحياتي

لقد اطلعت على الأسئلة المتعددة التي وجهها القارئ إبراهيم عبدالله الغرباوي من طرابلس، هذه الأسئلة، بعد الاطلاع عليها أكثر من مرة، أجدها في مضمونها تنقصها الدقة في التعابير والمعلومات الصحيحة والدامغة كما يدعي السائل، وتبدو كأنها كتبت بعفوية بهجوم سافر لا مبرر له لإدانة كيان الأنصار منذ تجميعه على عهد الاحتلال، وكذلك إدانة لقياداته السياسية المعروفة. وفي تقديري أن القارئ جنح في لامبالاة بالخروج عن لغة المخاطبة الموضوعية إلى إرسال التعابير في عفوية تامة للاستفزاز والإحراج، وذلك أسلوب أتخفظ عليه، فإذا كانت تلك العفوية في المخاطبة هي طبع السائل وأسلوب القارئ لمخاطبة الآخرين فأرجوه مراجعة ذلك الأسلوب، فحاشي أن يكون الإمامان عبد الرحمن والهادي بالصفات والانتهاكات التي يحاول القارئ وصفهما بهما، فالإمام عبد الرحمن أنجز ما وعد «السودان للسودانيين»، والإمام الهادي سقط شهيداً دون رايته من رفض حكم العسكر بلافتته الشيوعية التي رفعها يوم استيلائه على السلطة صبيحة ١٨٦٩/٥/٢٥ فذهب مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا.

في تقديري أن ما ذهب القارئ إليه بتلك الأسئلة وبذلك الأسلوب إنما هو نوع من التكرار الممل لكتاب اليسار السودانيين في سنى الخمسينات من جريدة «الصرافة» السودانية، فقد حاولت تلك الجريدة كل جهدها آنذاك في أكثر من مقال ومجال وممثل عموميات تُهم القارئ إلصاق لقب صديق أفندي بالسيد الصديق المهدي مدير عام دائرة المهدي وقتها والإمام الصديق فيما بعد، بما أدى إلى مواجهة لم يحمد عقباه.

مع ذلك لا أجد حرجاً في التعامل مع مثل هذه الأسئلة، فمقالاتي وكتاباتي مجردة وللتاريخ والقضية عامة، والأشخاص المعنيون حينما تتخاطب بشأنهم ليس بالضرورة أن تنطلق من موقف (والد كاتب المذكرات) فهم للتاريخ لأنهم من صناع التاريخ، وبعد الاطلاع على الأسئلة لأكثر من مرة أجد نفسي مضطراً إلى تبويبها وترتيبها تفادياً للتكرار وهاك في رحابة صدر ما أرى.

وتفضلوا بفائق شكرى واحترامى،،،

الصادق الهادى المهدي

السؤال الأول وجوابه بين إبراهيم الغرباوى والدكتور الصادق الهادى

ثمة أسئلة ملحة محورها دائرة المهدي وحزب الأمة لن تكون فى إمكانية الدكتور الصادق الهادى المهدي من طرحها فى خضم مذكراته على صفحات مجلة «التضامن» الغراء ولكن أود باقتضاب أن أنوه إلى بعض الأسئلة لإثراء المواضيع التى تناولها الدكتور وكذلك لإعطاء المذكرات صبغة المراجعة السياسية الحية لحزب الأمة ومساهمته فى الحياة السياسية منذ تولى السيد عبد الرحمن المهدي قيادة الحزب وطائفة الأنصار ويمكن تلخيص الأسئلة فى الآتى :

لماذا كُرسَت القيادة لحزب الأمة فقط فى عائلة المهدي المالكة ولماذا تم تهميش دور عائلة عبدالله التعايشي الرجل الأقوى فى نجاح الثورة المهدية؟ ولماذا أحجم أبناء الخليفة من المشاركة الفعالة فى تطوير حزب الأمة وما هى الأسباب التى ساهمت فى تبنى أبناء الخليفة عبدالله أمثال د. عز الدين المهدي وداود الخليفة وغيرهم فى انتقاد سياسة عائلة المهدي وأسلوب الهيمنة؟ ثم لماذا حاول السيد عبد الرحمن المهدي والإمام الهادي المهدي فى المحافظة على سياسة القمة القيادية المثقفة المؤهلة والقاعدة الجماهيرية الأنصارية الأمة الفقيرة؟ وهل هو تطبيق حى للمثل العرفى المعروف، وما هى الأسباب التى تساهم فى تكريس الأنصار فى تلاوة راتب المهدي وعدم توسيع دائرة الاطلاع للفقرة والأحاديث حتى يتمكن المسلم الأنصارى من توسيع مداركه الذهنية فى المذاهب المختلفة بدلاً من القوقعة فى كتيب (الراتب) الذى يحمل صوراً لزعماء عائلة المهدي ومع قليل من الآيات والدعوات المكررة؟ وهل هذه النتيجة إفراز لقلّة المستوى التعليمي الديني للإمام الهادي المهدي وعبد الرحمن المهدي اللذين لم يأخذوا إلا قسطاً زهيداً من التعليم الإسلامى المتطور رغم التمتع بلقب الإمامية التقليدية؟

وفي الآتي : جواب الدكتور الصادق الهادي المهدي :

في البداية وقبل السير قدماً في الرد على الأخ إبراهيم، أرى أنه لا بد من وقفة قصيرة لتوضيح وإبراز نقطة أساسية، عن ماهية وهوية كيان الأنصار، منذ نشأته وحتى يومنا هذا، لتصحيح بعض المفاهيم الخاطئة التي يرسلها البعض جزافاً أو عن قصد يهتمونه فيها بالطائفية أو الطائفية الدينية من دون التحقيق عن مدلولات أو معاني الكلمة، كما هي مستعملة في القاموس السوداني السياسي اليوم، وهو مفهوم قصد به الوصف بالتخلف والعجز والشرذمة مما لا يتفق والخلفية التاريخية والسياسية للكيان وعطائه النشاط والمتصل لأكثر من قرن على الساحة السياسية السودانية، وبذلك يصبح هذا الكيان من أعرق وأقدم التكوينات السياسية ليس في السودان فحسب بل والعالم العربي والإسلامي على الإجماع .

الخلفية التاريخية والسياسية لكيان الأنصار كما جاءت في المقالات السابقة، تقول بإيجاز، شديد، أن كلمة «الأنصار» هي تسمية سياسية دينية أطلقها الإمام محمد أحمد المهدي على أواخر القرن الهجري الماضي لكل الذين هبوا من أبناء وبنات السودان وقتها لنصر دعوته لتحكيم كتاب الله وسنة رسوله لإزالة المظالم والبدع التي أباحها الخديويون والعثمانيون في العالم الإسلامي . وهي تسمية اختارها الإمام المهدي وفق قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فأمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴿، ومتفقة مع نهج وسنة الرسول ﷺ حينما أطلق كلمة الأنصار على مجموعات المدينة من قبائل الأوس والخزرج . التي آوته ونصرت دعوته حين الهجرة لتثبيت الرسالة السماوية بالدعوة الإسلامية إلى كافة البشر .

ذاك من أمر التسمية وبداية الدعوة، فلم تكن دعوة الإمام المهدي لأبناء وبنات السودان للانضمام والانخراط في طائفة أو طريقة صوفية أسسها هو، أو

أن يكون هو شيخاً لطريقة صوفية أو طائفة أسماها الأنصار - إنما كانت دعوة جهادية ثورية بالمعنى المتعارف عليه في الفقه الإسلامي - جمعت سلالات سودانية مقاتلة كان لها الغلبة السياسية والاقتصادية على أوضاع السودان بعد انتصار الثورة وتأسيس الدولة، فبهم قامت تلك الدولة ومنهم سقطت (١٨٨١ - ١٨٩٨).

أسس الأنصار بتوجيه الإمام المهدي مدينة أم درمان كعاصمة لحكمهم، وقد سماها الإمام المقاتل (البقعة المباركة) وفيها قبر، ولا زال مكان قبره (القبة) هو المعلم الأساسي في المدينة، وما زالت أم درمان وحتى بعد الاحتلال المصري الإنكليزي ١٨٩٨م وإلى اليوم هي العاصمة القومية للسودان، فيها نمت الأنشطة الثقافية والأدبية التي أفضت إلى قيام الأحزاب السياسية التي قادت البلاد إلى الاستقلال في ١/١/١٩٥٦، وكذلك نشأت فيها الأندية الرياضية والفنية والثقافية والاجتماعية.

وقد تغنى الشعراء بتاريخ أم درمان بزهو وفخر شديدين، وكذلك تغنوا بحماها وجمال حسناواتها في تحف رائعة من الأدب السوداني المعاصر، ولعل أجمل ما قيل في تاريخ أم درمان، هو تاريخ الأنصار، ما نظمه الشاعر عبد الله محمد زين في عصمائه التي يتغنى به كل السودانيون في أدب شعبي رائع ألهم الحماسة للمستمعين وهي قصيدة رائعة تتحدث عن ملحمة التاريخ الأنصاري، من الجهاد والثورة والدولة والثوار، ولا تتحدث عن الطائفة أو الطائفية والشعوذة والتخلف وهي صفات يحاول بعضهم في سذاجة إلصاقها بالكيان، فهيا إلى مختارات من القصيدة مع تعليقات مناسبة عسى أن تختصر لنا الطريق لتوضيح ما نحن بصدده في هذه المقالة :

أنا أم درمان أنا السودان	أنا الدر اليزين بلدى
أقوم بأعظم الأدوار	وأقود الساحة للثوار
أنا أم درمان سليله السيل	قسمت الليل وقمت صباح
أنا الولدوى بالتهليل	وهلت فوق غابة رماح
أنا الطائفة المقابلة النيل	وأنا العافية البشد الحيل

أنا القبة البتضوى الليل	وتهدى الناس سلام وأمان
أنا أم درمان ده ميلادى	وتيلادى البشيل اسمى
أنا القسدمت أولادى	شرافه وسيف على وسمى
وكننت القوة والجلولة	وحزرت وفزت بالجلولة
وكننت الراية والدولة	وفى التاريخ بقيت عنوان
أنا أم درمان نصرت الدين	وكننت فداية للإسلام
وروحوا حولى ناس صادقين	ضناهم من حياقي غرام
وذانوا الجودة والفكرة	وخلدوا أعظم الذكرى
ودخلوا المدرسة الكبرى	ونالوا شهادة الإيمان
أنا أم درمان سقانى النيل	رحيق العزة من كاسه
أنا لى مجده كنت دليل	وأية وحلة لناسوا
أنا الفى الشاطيء الغربى	سقوط غردون مهر حرى
وأنا النيل طلب قرى	مزج من كافة الألوان

ذاك نغم شجى تنطبق عليه عبارة السهل الممتنع، وهو نغم يردده السودانيون على مختلف مشاربهم فى زهو وحماس، فتعاير الشاعر البسيطة تفسر تاريخاً كاملاً للملاحم من البطولات للآباء والأجداد، لاتوافق مواصفاتها مواصفات الطائفية كما هو متعارف عليها فى العالم العربى والإسلامى، أو مواصفات التشردم والتخلف إنما هو تجمع لثوار .

فأم درمان حسب القصص والأدب الشعبى تقوم بأعظم الأدوار وتقود الساحة الثوار وهى التى ولدوها أو أنشأوها بالتهليل وشارات الثورة، وقد هللت على أرضها حين ميلادها غابة من الرماح كناية عن الحشود الصامدة والمقاتلة من الثوار الذين زحفوا كالسيل المنحدر بعد انتصار شيكان للخرطوم، وهى القبة التى تضوى الليل قبة الإمام المهدي التى شهدها الناس سلام وأمان، والإمام المهدي لا يحكم السودان من قبره، كما يحاول الكثيرون إعطاء هذا الانطباع، إنما تحكم السودان الباقيات الصالحات من أعماله، وأم درمان هى

التي قدمت أولادها شرافة وسيف على وسمها ورغرت فوق سمائها رايات الثورة الخفاقة، وأم درمان هي الثورة التي ذهب فداءها أناس صادقون طيبون مجاهدون فتنوا بغرامها وبحب التراب السوداني، فخلدوا أعظم الذكرى للملاحم حربية قل أن يجود الزمان بمثلها، ونالوا شهادة الإيمان والجهاد والاستشهاد .

وأم درمان تفخر بنفسها، وكيف كان مقتل الجنرال الانكليزي غردون في الشاطئ الغرى من النيل وبعد سقوط الخرطوم، هو مهر حربها ونهاية حكم الأتراك وبداية استقلال السودان .

وهكذا تسير القصيدة، لاطائفية ولا تخلف، ولا شعوذة، إنما نضال وكفاح وشهادة، وعطاء بلا حدود، ذلك هو تاريخ الأنصار في نعم شجى وكلمات بسيطة لا يستطيع كائن من كان أن يسلخهم ذلك التاريخ فهم لا يسوون شيئاً من دونه .

تلك كانت البداية، ولقد تواصل مشوار كيان الأنصار على الساحة السياسية السودانية على عهدى الاحتلال والاستقلال وفق توجهات الإمام عبدالرحمن المهدي حيث أدخل فيه كما أسلفنا مبدأ قبول الديمقراطية والرأى الآخر وأشياء أخرى متعددة، ومع كل ذلك احتفظ الكيان بموروثات عديدة أهمها :

الإبقاء على المسحة الجهادية في كثير من معاملاتهم السياسية خاصة وأن كثيراً من مقاتلى الثورة كانوا أحياء على أيام عهد الاحتلال الأولى فأورثوا أبناءهم وأحفادهم خبرتهم الغالية، من معارك الأبيض وشيكان والخرطوم، كذا أورثوهم عناء الماثرة على الشدائد والهزائم في توشكى والخفير والنخيلة وكررى وأم ديكركات والشكابة .

كذلك ورث الكيان التفاعل مع الأحداث السياسية على الساحة السودانية، أيا كان قدرها، ذلك لأنه كيان أصيل فيها أفرزته بعد نضال وكفاح

وثورة، ولم تفرزه طائفة أو زاوية أو طريقة صوفية بعينها وعليه لم يكن ممكناً لقيادات الأنصار أن يجتمعوا لأداء الشعائر الدينية فقط ويقولون في كلمات محسوبة أنهم أهل دين فقط وربنا يولى من يصلح أو هكذا يقول بعضهم، أما قيادات الأنصار فقد فرضت عليهم خلفيتهم السياسية، إبداء الرأى السياسى أيا كان نوعه وقدره .

لقد حاولت قوات الاحتلال إقناع الإمام عبدالرحمن المهدي بإنشاء طريقة تنسب إليه «الرحمانية» والتخلى عن الالتزام بكيان الأنصار، مثل طائفة القيدانية في الهند التى أسسها الشيخ أحمد القيدان، لكنه أبقى على كيان الأنصار ورفع شعارات :

لا شيع ولا طوائف ولا أحزاب، ديننا الإسلام ووطننا السودان، وبذلك الشعار تعاون مع طلائع المثقفين السودانيين ودعم مؤتمر الخريجين العام منذ يومه الأول وحتى انقسامه إلى جهات متعددة، ولعله كان أكبر المتبرعين لإنجاح نشاطات المؤتمر في يوم التعليم ومحاربة الأمية، وحينما انقسم المؤتمر إلى جبهات أهمها الجبهة الاتحادية التى ارتأت الاتحاد مع مصر تحت وحلة وادى النيل ثم الجبهة الاستقلالية التى طالبت باستقلال السودان كلياً عن دولتى الحكم الثنائى وناحاز الإمام عبدالرحمن مع الجبهة الاستقلالية، فأسسوا حزب الأمة ورفع الإمام عبدالرحمن شعار «السودان للسودانيين» وكان خصومه لصديقها يقولون «كلمة حق أريد بها باطل» ولكنها بقيت وكسبت الجولة حينما انحازت المجموعة الاتحادية إلى راية الاستقلال .

هناك سؤالان بارزان يفرضان نفسيهما بالحاح شديد، أولهما: أبعد كل الذى سقناه وسردناه عن تاريخ نشأة كيان الأنصار السياسية والدينية، أيحسبه الأخ إبراهيم ومن حدا حنوه تكويناً طائفياً رجعيماً متخلفاً؟ أم ماذا. إذا كان تكوين كيان الأنصار طائفياً ورجعيماً، إذاً فكل بداية تاريخ السودان الحديث وأجماده التى يباهى بها الأمم، ترتد إلى رجعية طائفية، وحدث ولا حرج .

أما ثانى الأسئلة فهو كشكول من التهم يرسله الأخ إبراهيم الغرباوى فى

أنفاس قصيرة متقطعة تنهم الإمام عبد الرحمن وتصفه بالثرى الممعن في الراحة وملذات الحياة والجاه على هامات ومقدرات رجالات الأنصار الذين احتكروا قيادتهم لنفسه، نحن نقول أن ذلك الوصف يجافى الحقيقة فالحال الذي يتحدث عنه الغرباوى ومن هذا حله اندثر على سفوح جبل كرى في صبيحة ٢ أيلول (سبتمبر) ١٨٩٨ م.

أما ما حدث بعد ذلك فيعبر عن عطاء الرجل ومقدراته القيادية في تجميع قيادات كيان الأنصار بعد الشتات الذى أصابها من هزائم توشكى والحفير والنخيلة وكرى وأم ديكرات والشكابة التى أصيب فيها بالرصاص على كتفه وهو دون الثالثة عشرة من عمره، لم يعطه أحد قيادة كيان الأنصار، أو حزب الأمة الذى أسهم في تأسيسه، إنما برز الرجل ليقود الزمام بنفسه دون أبناء الأسر الأنصارية العريقة بما فيهم أبناء الخليفة عبد الله، وأبناء الخليفة الذين يتحدث عنهم الغرباوى في حسرة شديدة أبعدوا أنفسهم عن حزب الأمة لأسباب يعرفونها ثم عادوا وتبوأوا أعلى المناصب باسمه، فهاهو السيد داود الخليفة (رحمه الله) وابنه محمد وابن عمه صلاح عبد السلام يحتلون أرفع المناصب باسم حزب الأمة، وأن محمد داود أسقط الصادق المهدي في انتخابات حزب الأمة عام ١٩٦٧ فماذا تقول بعد ذلك ؟

حياة الإمام عبد الرحمن مليئة بالتفاعلات مع الأحداث، فهو الذى بدأ من العدم مطارداً من قوات الاحتلال، فالمصريون يريدون قبره، والإنكليز يخشون بعث الدعوة المهدية الجهادية في شخصه ومع ذلك أفلح في الإفلات من التصفية الجسدية التى أضمرها له .

فحشٌ وزرع بيده وكان لاجتهاداته وعطائه المتصل دور أساسى في توليف قلوب الرجال حوله وتوظيف عطائهم لتحزير السودان واستقلاله الوطنى، فإطلاق التهم . على عواهنه . بتهمة الثراء والترف لا يفيد كثيراً، إنما يوغر الصدور، فهناك عدد من المؤلفات والوثائق المحققة، بعضها بحوث تاريخية نال به عدد من السودانيين أرفع الشهادات العلمية من الجامعات السودانية

والأجنبية حول الرجل ومعاصريه، أثبتت مقدراته وعطاءه بلا حدود للوقوف تحت راية الاستقلال وكفاه ذلك فخراً، ماذا يريد الغرباوى ومثاله، أيريدون إقامة محاكمة تاريخية للإمام عبد الرحمن لبعثه بكيان الأنصار والتصدى لقيادته والانتصار به لدعوة الاستقلال الوطنى؟ أم ماذا؟؟

أما جزعه عن بقاء قيادة الأنصار فى عقبه، فذلك من شأن الأنصار، ويحدثنا التاريخ فيقول أن تلك القيادة الموروثة سوف تبقى متى ما كان عطاؤها فى مستوى الأحداث، وسوف تسقط متى ما تقاعست واسترخت وعجزت عن الاضطلاع بالدور المطلوب منها .

أما اتهامك للإمام عبد الرحمن والإمام الهادى « فى المحافظة على سياسة القمة القيادية المثقفة المؤهلة والقاعدة الجماهيرية الأنصارية الأمية الفقيرة »، ثم أردفتها فى صفحة أخرى بتهمة « قلة المستوى التعليمى الدينى للإمام الهادى المهدي والإمام عبد الرحمن المهدي، اللذين لم يأخذوا إلا قسطاً زهيداً من التعليم الإسلامى المتطور، رغم التمتع بلقب الإمامية التقليدية؟ » فيه تناقض واضح يكشف عن عدم الثبات على رأى واحد، وعدم ترتيب الأفكار فيما تتحدث عنه، بل إنك ترسل التهم جزافاً وعلى عجل، إذ كيف يمكن لجاهلين الإبقاء على المثقفين والتعامل معهم، ومع ذلك أقول لك :

إن الإمام عبد الرحمن المهدي كان تعليمه أساساً دينياً، بدأ تحت رعاية الخليفة عبد الله فى خلوة أبناء المهدي بالقبة إبان الدولة المهدية وحتى سقوطها عا ١٨٩٨ وكان عمره آنذاك قد ناهز الثلاثة عشر عاماً، أما بعد الاحتلال وبعد معركة الشكابة التى كان مفروضاً أن يتم فيها تصفيته جسدياً، ثم الإقامة الجبرية فى جزيرة الفيل بالقرب من وادى مدنى قبل السماح له بدخول أم درمان ١٩٠٨ تحت الإقامة الجبرية بالمنزل فى حى العباسية، حيث تتلمذ على شيخ الإسلام الشيخ محمد البلوى لدراسة الفقه والتوحيد إلى آخر ما كانت تجود به حلقة الشيخ آنذاك، وقد مكث هناك بعض سنين كان خلالها لا يعقد الشيخ حلقاته إلا بعد حضوره، فقد سمع عن الشيخ محمد البلوى أنه حينما

يدخل عليه حاجبه ليأذن ببداية الدرس ، يسأل « ولد المهدي جاء » ، فإذا كانت الإجابة بالإثبات بدأت الحلقة وإلا انتظر ، وقد احتج بعض التلاميذ على ذلك ، فقال لهم الشيخ : هذا يستفيد من علمه قوم كثير ، وكأنما كان يتوسم فيه الإمامة لجموع المسلمين .

وعندما قويت شكيمة الإمام عبد الرحمن وبدأ حياته العلمية ، كان له أصدقاء كثيرون من علماء الإسلام من كل الأجناس ، أضف إلى ذلك ، فقد كان من أعز أصدقائه الشيخ أبو شامة عبد المحمود مفتي الديار وشيخ علماء السودان ، فقد عرف عن الإمام عبد الرحمن ، أنه كان مولعاً بالعلم والعلماء والمثقفين وساعد بماله ووقته وعلاقته كل المؤسسات التعليمية القائمة في السودان آنذاك ، إضافة إلى جهوده الجبارة في إنجاح يوم التعليم الذي نظمته مؤتمر الخريجين العام ، كذلك ساعد سيادته عدداً لا يستهان به من طلاب العلم لتكملة دراستهم سواء في السودان أو خارجه ، واشترى بيت السودان (مبنى الملحقة الثقافية حالياً في لندن) هدية لإقامة الطلبة السودانيي في لندن ، لا أدري كيف يوصف رجل بتلك التوجهات والحدب على العلم بإبقاء قاعدته الأنصارية في وحل من الجهل . راجع جريدة الراى العام ٩ نوفمبر ١٩٤٦ م .

أما الإمام الهادي فقد كان تعليمه عصرياً بدأ بالخلوة في الجزيرة أبا ثم ودنوباي ثم درس في رفاعة وفي مدارس الأحفاد وكلية غردون ثم أكمل تعليمه في كلية فيكتوريا بالإسكندرية ، حيث زامل الشريف حسين الهندي ، فيما مكن فيما بعد لصداقة وعلاقة قوية بينهما إلى أن لقيا ربهما ولم تصافح أيديهم حكام مايو العسكريين . بعد الإسكندرية ، رجع الإمام الهادي للسودان لمساعدة والده ، حيث أقام معظم أوقاته في الجزيرة أبا فتبحر في العلوم خاصة الإسلامى منها ، وصادق العلماء أمثال الشيخ حسن مدثر قاضى القضاة ، وشيوخ الأنصار وحفظ القرآن ، كان في رفقته دائماً العلماء وأهل العلم مما تسبب له في مشاكل عنيفة قادت إلى انقسام حزب الأمة ، مما سوف نطرقه لاحقاً ، فقد ظن الكثيرون من سياسى حزب الأمة أن توجهاته الدينية وحديثه المتصل عن الجمهورية الإسلامية ومصادقته لرجال الدين من دون السياسيين

قد تقود الحزب إلى التزامات لا يستطيعون الإبقاء عليها، ويكفيه فخراً أنه لقي ربه مستشهداً في سبيل الإسلام وضد إقامة نظام ماركسي في السودان .

كان الإمام الهادي يحرص على إمامة المصلين للأوقات الخمسة من اليوم في الجامع ثم يحضر بانتظام جلسات قراءة راتب الإمام المهدي في أوقاته المعلومة ، وهكذا كان شأنه ودربه ، فهل يوصف الذي جمع بين التعليم العصري والتفقه في الدين من أنه نال قسطاً زهيداً من التعليم .

أما استشهادك بالمثل العري القائل « جُوع كلبك يتبعك » كناية عن فقر الأنصار وتجويعهم بواسطة الإمام عبد الرحمن المهدي حتى يتبعوه ، وفي صفحة أخرى تتحدث عن « الطرف الثاني من قاعدة تجمع المال لدائرة المهدي هي أموال الزكاة والصدقات التي تجمع من أغنياء الأنصار من غرب السودان المعطاء الذي كان نصيبه المزيد من التجاهل والفقر والأمية » . فيه تضارب واضح ينم عن اضطراب وجهل بالحقيقة . فحصيلته كلامك تفيد بأن هناك أنصاراً أغنياء وأنصاراً فقراء شأنهم شأن بقية أفراد الشعب السوداني الكريم ، وعموماً فمثلك « جُوع كلبك يتبعك » محدود في تعبيره ونجافي الواقع الذي أقررت في عباراتك ولا ينطبق على ما كنت تنوى التعبير عنه .

فكما هو معروف لم يكن الإمام عبد الرحمن حاكماً للسودان حتى يحرم من يشاء للدرجة الجوع لاتباعه ، فالذي كان يحكم السودان حتى ١٩٥٦ هم جنود وإداريو الاحتلال ممثلين في حاكم عام السودان ، كذلك توفي الإمام عبد الرحمن في آذار (مارس) ١٩٥٩ أى حوالى ثلاث سنوات بعد الاستقلال ، كان الفريق عبود حاكماً فيها لمدة نصف عام تقريباً ، والسيد إسماعيل الأزهرى لنصف آخر ، وحصيلته العاميين بين حكم أزهر وعبود قامت فيهما حكومة ائتلافية بين حزبي الأمة والشعب الديمقراطي . بمعنى آخر لم ينفرد حزب الأمة الذي يتزعمه الإمام عبد الرحمن بالحكم إطلاقاً . حتى تكون للإمام السطوة والجرة في تجويع من يشاء من الأنصار حتى يتبعه . كذلك من المسلم به أن رجال الأنصار يشكلون شريحة يفوق عددها ملايين السودانيين ، ولا يعقل

أحد أن يكون كل أولئك موظفين للإمام عبد الرحمن، حتى يحرمهم مرتباتهم ليتبعوه جوعاً، فالذين خدموا الإمام عبد الرحمن من رجالات الأنصار لا يتعدون الأصابع، والذين تعاونوا معه اقتصادياً في الجزيرة أبا، مما سنعود له لاحقاً، لا يتعدون الآلاف، أما بقية الملايين من رجالات ونساء الأنصار في البوادي والأرياف فرزقهما على الله يهب من يشاء بغير حساب، حقيقة ملايين الأنصار الذين تبعوا الإمام عبد الرحمن، إنما لتحقيق أهداف كبيرة بعينها تحدنا عنها في أكثر من مجال.

أما الذين أوردوا التهمة للإمام عبد الرحمن بأنه مات ثرياً ولم يطبق شرع الله وكذلك التهمة نفسها للإمامين الصديق والهادي الذين خلفوه فأقول باختصار شديد وبالمنطق نفسه أعلاه وبالتواريخ نفسها أعلاه، لم تكن السلطات على عهد الاحتلال حتى ١٩٥٦/١/١ ممنوحة للإمام عبد الرحمن ولا بعدها حتى يطبق شرع الله، وكذلك لم تكن للإمام الصديق حتى وفاته أيام عبود لتطبيق شرع الله. أما على عهد الديمقراطية الثانية ٦٤ - ١٩٦٩ فقد كان الائتلاف الحاكم بين حزب الأمة والاتحاد الديمقراطي يسعى جهده لوضع مسودة لدستور لا يتعارض مع شرع الله، وعموماً لتطبيق شرع الله ومحاربة الشيوعية استشهد الإمام الهادي، وأن أمر تطبيق الشريعة الإسلامية في السودان، لا يكون بالبساطة التي يتصورها الكثيرون، فهناك عوائق عملية كثيرة لا بد من تجاوزها حتى نعمل لشرع الله، وما الذي بين أيدينا منذ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٣ وحتى اليوم ليس بخاف على أحد، فخافوا الله في سيرة الرجل.

أما حديثك عن الأسباب التي تساهم في تكريس الأنصار في تلاوة راتب الإمام المهدي وعدم توسيع دائرة الاطلاع للفقه والأحاديث حتى يتمكن المسلم الأنصاري من توسيع مداركه الدينية في المذاهب المختلفة بدلاً من البقعة في كتيب الراتب الذي يحمل صوراً لزعماء عائلة المهدي ومع قليل من الآيات والدعوات المكررة كما قلت.

فيبدو أنك نسفت كل كيان الأنصار من جلوره واتهمت الإمام المهدي

أبا الثورة والوطنية الحديثة بصاحب كتيب الراتب الذى يحتوى كما قلت على قليل من الآيات والدعوات المكررة ، وكلمة تكرار تعنى السماجة ، وإذا استبحت لنفسك استعمال تلك التعابير عن أئى الثورة وأئى الوطنية السودانية الحديثة ، فيهن أمام ذلك انتقاداتك للإمام عبدالرحمن وخليفته الصديق والهادى من بعده . وعموماً لأستغرب لاستعمالك تلك الكلمات ، فلقد وصفت الإمام المهدي فى بعض صفحاتك ، بالثائر الاجتماعى ، وهذه هى أول المرات التى نسمع وصف الإمام المهدي بالثائر الاجتماعى فكل مؤرخى الشرق والغرب مسيحيهم ومسلموهم وصفوه بالثائر السودانى الإسلامى .

وراتب الإمام المهدي ليس هو كتيب من تأليف الإمام المهدي به قليل من الآيات والدعوات المتكررة فقط ، إنما هو بلغة العصر كان يمثل المنفستو الذى ارتكزت عليه الثورة الوطنية الأم ، وهو فى مجمله مجموعة من الأدعية أو الأوراد والآيات القرآنية جمعها الإمام المهدي ورتبها بأسلوبه لحث المجاهد والمناضل السودانى على الجهاد فى سبيل الله وإحياء كلمته . فقد حرص الإمام المهدي فى كل منشوراته المحققة والتى كان يبعث بها بين الحين والآخر إلى قيادات الثورة فى مختلف أنحاء البلاد ، بأن يحرصوا على قراءة الراتب مع حزب من القرآن . فقد كان يعتقد فى ذلك تظميناً لقلوب الجماهير . وإذا كان ذلك هو توجيه أئى الثوار فلاأعتقد أن هناك عيباً فى الإبقاء على ذلك التقليد .

ولمعلومية السائل فقوات الاحتلال البريطانى ، منعت جماهير الأنصار من حيازة الراتب أو قراءته ، ومن يوجد فى حوزته راتب كان يعاقب بالجلد والسجن ، هكذا يتضح إلى أئى مدى تجد قراءة الراتب مكانة خاصة فى التراث الأنصارى .

وقراءة الراتب لاتمنع المسلم الأنصار ، من توسيع مداركه الدينية فى المذاهب المختلفة ، فالراتب لا يقوم مقام المذاهب ، وعموماً قراءة الأوراد ليست محجورة على المسلمين فالشاذلية يقرأون أوراد سيدى أئى الحسن الشاذلى . والتجانية يقرأون حزب السيف لسيد حمد التجانى إلخ إلخ ، من دون أن تحجب تلك الأوراد اطلاعهم على المذاهب المختلفة .

جواب الدكتور الصادق الهادى على السؤال الثانى لإبراهيم الغرباوى

لماذا لم تسارع دائرة المهدي رغم الثروات التى بحوزتها فى تطوير الجزيرة أبا وإقامة المدارس والمعاهد الدينية علماً أن الأنصار أكثر الفئات الاجتماعية حباً للدين وأكثر شغفاً للعلم رغم أن الجزيرة أبا كانت تعيش فى وحل الأمية ، ولماذا حاولت عائلة المهدي الاستحواذ على أموال دائرة المهدي علماً أن بعض الأموال الاستثمارية هى محصلة جهد وعرق الأنصار الفقراء الذين عملوا بسخاء غريب فى قطع الأشجار والأخشاب التى استعملت فى الكمان الطوبية لإبقاء المقاولات فى عصر الحكم الثانى حيث تعتبر بداية القطرة فى ثراء بيت المهدي الثائر السودانى الاجتماعى الذى لم يترك أى أموال ورثة لأبنائه حيث مات فقيراً عفيفاً بينما عاش أحفاده وأبنائه فى تنعم ورفاهية .

والطرف الثانى من قاعدة تجميع المال لدائرة المهدي هى من أموال الزكاة والصدقات التى تجمع من أغنياء الأنصار فى غربى السودان المعطاء الذى كان نصيبه المزيده من التجاهل والفقر والامية ، ولم تحاول دائرة المهدي وحزب الأمة فى القضاء على فقر الأنصار خاصة المقيمين فى الجزيرة أبا والمشاريع الزراعية التابعة للدائرة ؟

الجواب : نحن نقول للغرباوى ، لا تحاول من خلال أسفلك العفوية أن تعطى انطباعاتاً عن تجمعات الأنصار ، وكأنها تعيش فى وحل من الجهل بسبب زعامة الإمام عبدالرحمن المهدي لها ، فمن المعلوم أنه كان من سياسة عهد الاحتلال الانجليزى حتى الأربعينيات ، التضييق على تجمعات الأنصار واضطهادها وحرمانها من فرص التعليم وبالتالى حرمانها من التوظيف والمشاركة فى وظائف الإدارة المفتوحة للسودانيين وقتها ، وهى حقيقة لا يختلف عليها اثنان

ملمان بتفاصيل توجهات وسياسات الاحتلال في السودان ، ولقد انعكست تلك الحقيقة سلباً بعدم الكوادر بقدر كافٍ من خلفيات أنصارية تؤثر في صنع القرار ، لذلك كانت ديار الأنصار في السودان تحظى بخدمات هامشية لا تسمن ولا تغنى من جوع .

أما على عهد الاستقلال والتحرير الوطني، فقد واكبت فرص التعليم ولا أقول بالصورة المثلى، إنما بصورة عملية تطلعات مناطق الأنصار، فقد نال الغرب، في خطوات سريعة خدمات لا بأس بها في التعليم وتوفير المياه .. إلخ، وانعكس ذلك على التمثيل النيابي الذي توضحه آخر إحصائية لبرلمان ١٩٨٦، ودونك كشف النواب ومؤهلاتهم، فلاتهجير للنواب بسبب الجهل ولا وحل من الأمة كما تزعم، فقائمة نواب حزب الأمة في كل دوائهم الانتخابية تعبر عن مستوى رفيع في المؤهلات العلمية ومن الفهم والتعامل العلى مع متطلبات الحياة .

أما الجزيرة أبا التي تتحدث عنها قائلاً أنها «توحد في الجهل» فهي كمدينة صغيرة مقارنة بمثيلاتها من المدن السودانية تعتبر في مستوى لا بأس به من فرص التعليم، ففيها ما لا يقل عن ١٠ مدارس من كل مستويات التعليم الابتدائي والثانوي العام والعالي والفنى، وللمعلومية الغرابوى للجزيرة أبا دائماً وضع مميز يضعها في المقدمة فهي مهد الدعوة، وأرض الثورة، وهى النقطة التى انطلقت منها رايات التحرير غرباً ثم انعطفت شرقاً حتى سقطت الخرطوم، وسقط الحكم التركى وتحرر السودان، كذلك كانت الجزيرة أبا أرض الميعاد التى تجمع فيها أبناء وأحفاد الثوار لبدأوا ثورة أخرى بمفاهيم جديدة فأسسوا تحت قيادة الإمام عبد الرحمن تجمعاً اقتصادياً قوياً وفر كل المال الذى تطلبته الحركة الاستقلالية عبر دائرة المهدي لتحقيق الاستقلال للوطن، وهو مجهود اشترك فيه مع المهاجرين الأنصار الإمام عبد الرحمن وذووه بأيديهم فحششوا وزرعوا سوياً يداً واحدة لتحقيق الأهداف، ولم يحفظ الإمام عبد الرحمن المال لنفسه كما تزعم، فقد صرف ذلك المال من دون بخل أو أنانية لتحقيق الفكرة والهدف اللذين أذنا بجمعه، لقد كان الأبناء والأحفاد على وعد

بأن يعيدوا للسودان استقلاله ومجده الذى طاح على جبل كررى ، ليس بالثورة المسلحة مثل الأجداد ، إنما بالعمل السياسى المسموح به إبان عهد الاحتلال ، وقد فسرت فى مقالاتى السابقة الأسباب التى أملت التغيير فى النهج ، وفى كلتا الحالتين كان التحرير والاستقلال الوطنى هدفاً تحقق .

لم يكن الإمام عبدالرحمن إقطاعياً بالسوط فى يده وعبيد الأرض من حوله وسجونه ملأى بالمتمردين عن طاعة إقطاعه ، كذلك لم يعرف عن الإمام عبدالرحمن « التكويش » على المال الذى وفرته الجزيرة أبا والانزواء به لنفسه من دون الايفاء بالالتزامات التى أذنت بتديره فى المقام الأول ، إنما كان شخصية مؤدبه ، مرنة فى تعاملها مع البشر ، كريماً فى عطائه وكان بيته لسد الجوع وقشاشاً للدموع وهى خصال تعكس بمقاييس زمانها صورة وضاعة للمواطن الصالح ، فاترك الإمام عبدالرحمن والإمام الهادى لزمانهما . أما مقاييس زمانك فلونك نحن .

أما سؤال عن أين ذهبت أموال دائرة المهدي ، أيأ كانت أصولها ، فأقول لك بالحزم كله وفى صدق ودون مواربة :

ذهبت لدعم مسيرة الجبهة الاستقلالية وحزب الأمة لتحقيق استقلال السودان ، وكذلك لدعم المؤسسات التعليمية والاجتماعية المتعددة ، وحينما جاوز الإمام عبدالرحمن السبعين من العمر ، نال السودان استقلاله عام ١٩٥٦ وتحقق بذلك أكبر التزام قومى وأدى إلزم به نفسه والمهاجرين للجزيرة أبا فلم يعد للمال مكان من سؤال ، وعندما توفى الإمام عبدالرحمن عن خمسة وسبعين عاماً ، كانت كل أصول دائرة المهدي مرهونة للبنوك ، لتغطية العجز المالى فى إدارة أعمالها التجارية لخدمة مسيرة الاستقلال ، وبحلول عام ١٩٦٠ كانت دائرة المهدي بين مد وجزر فى الإدارة ومطالبة الدائنين حتى استولى عليها جعفر نميرى بعد معركة الجزيرة أبا العسكرية ١٩٧٠ ، ومن وقتها لم يعد للدائرة نفوذ أو مال يصرف حتى فى إعاشة مساهمينا إعاشة مريحة مما حدا بهم إلى إيجاد مصادر أخرى لدخولهم ، ليتمكنوا من العيش الكريم ،

فبعضهم هجر الدائرة لإيجاد فرص أحسن أو انشغل بالسياسة ، حقيقة في الفترة ما بين ١٩٦٠ - ١٩٧٠ ، لم تلعب أصول دائرة المهدي دوراً في أى مساعدات سياسية لحزب الأمة أو غيره ، ويبدو أن أمرها الحالى انتهى بنهاية الإمام عبدالرحمن المهدي وإنجاز السودان استقلاله ، فقد كانت خير دعم له لمواجهة الدعم المصرى لمسيرة وحدة وادى النيل .

أما ما تم تقسيمه من أصول دائرة المهدي عام ١٩٨٤ فهو هدية التضخم المالى الذى لحق بالسودان ، فبعد المصالحة عام ١٩٧٧ وبعد المراجعة والحجج والمنطق مع جعفر نميرى وافق على إرجاع الأصول بعد خصم مديونية البنوك التى آلت للحكومة بعد التأميم ، وتم ذلك التقسيم لأكثر من ١٠٣ (مائة وثلاثة) وريث من أبناء وبنات وأحفاد الإمام عبدالرحمن المهدي ، وفى تقديرى أن ما ناله أكبر الورثة أسهماً من أصول لم يعد يساوى شيئاً مقارنة بالثراء الذى نراه اليوم على وجوه سودانية كثيرة .

أما الزكاة ، فقد كانت لها مكاتب وإدارة منفصلة ، خاصة فى الجزيرة أبا ولم تخلط أوراقها بأوراق دائرة المهدي فى أى مرحلة من تطويرها فلكل مجراه . أما أوجه الصرف فقد كانت حسب الآية الكريمة ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ صدق الله العظيم الآية ٦٠ سورة التوبة .

أما مشاريع دائرة المهدي على النيلين الأزرق والأبيض والتى وفرت كل ذلك المال وهو مال الفداء فقد أصابها على نهاية الخمسينات وبداية الستينات ، ضمن ما أصاب المشاريع الزراعية الأخرى فى المنطقة ، تدهور فى الإنتاج مما تسبب فى ظروف صعبة لإدارتها وعولج أمرها ضمن قائمة المشاريع الخاصة حيث آلت عام ١٩٦٧ وحتى اليوم إلى مؤسسة الإصلاح الزراعى ، فالיום لا توجد فى السودان مشاريع زراعية خاصة على نموذج الإقطاع الذى تزعم لآل المهدي أو لغيرهم ، وما زالت حكومة السودان تفكر فى الكيفية التى تتعامل بها أمر تلك المشاريع .

أما أراضي بعض المشاريع الزراعية التي تملكها دائرة المهدي في النيل الأبيض والجزيرة المروية بما فيها أراضي مشروع الجزيرة أبا، فهي لا تزال تزرع بواسطة المزارعين تحت إدارة الإصلاح الزراعي، ولم تسبب ملكية الأراضي عائقاً في استثمار الأرض زراعياً، فأهل الأرض لم يطالبوا بأراضيهم أو حتى دفع إيجار على استثمارها. حقيقة الأمر كل تلك الأراضي بما فيها أراضي مشروع الجزيرة أبا لم تشملها تقسيمات ممتلكات دائرة المهدي الأخيرة، فقد أبقى أبناء وبنات الإمام عبد الرحمن كل أراضي الجزيرة أبا خارج دائرة التقسيم، فهم جميعاً متفقون أن تلك الأراضي لا بد أن تستثمر لمصلحة الجميع، وما زال الأمر يخضع للنقاش في الأسلوب الأمثل الذي تستثمر به تلك الأراضي لمنفعة سكان الجزيرة أبا الذين يشكل آل المهدي عصباً قوياً بينهم، فإن كان لك رأى نافع وتصور عملي جاد، من دون طرد آل المهدي من الجزيرة أبا، فتكرم بالرد.

السؤال الثالث والسادس وجوابهما بين إبراهيم الغرباوى والدكتور صادق

ما هى أسباب الخلاف السياسى العميق بين الصادق المهدي والإمام
الهادى عبد الرحمن (والد كاتب المذكرات) ؟

ولماذا قاوم الإمام الهادى سياسة الصادق المهدي التطويرية وتحديث
حزب الأمة بمزيد من الحث على تعليم أبناء الأنصار وردم الهوة السحيقة بين
القمة المتعلمة فى الجامعات البريطانية والقاعدة الأمية المقعنة فى وحل التبعية
المطلقة ؟

لماذا اعتمد حزب الأمة على بعض الشخصيات اللامعة مثل محمد أحمد
محبوب علماً بأنه لم يكن يوماً يؤمن بالمهدية والأنصار بل يعتبرها تحفة من
آثار الماضى . أم كانت من نتائج وإفرازات المحافظة على القيادة السياسية
السودانية تحت كل مسمى ؟

وفيما يلي جواب الدكتور صادق المهدي على السؤالين :

وبسؤالك عن خلافات حزب الأمة بين الصادق المهدي والإمام الهادى ،
فقد لمست موطن الأذى الحقيقى الذى أصاب كيان الأنصار وذراعه السياسى
حزب الأمة على عهد الديمقراطية الثانية ، فقد وصل الخلاف ذروته فى
عام ١٩٦٧ عندما خاض الحزب الانتخابات العامة منقسماً على نفسه ، وعلى
أسره وتجمعاته الاجتماعية المعروفة .

وما غاب عنك أن تقوله هو أن انقسام حزب الأمة عجل بنهاية
الديمقراطية الثانية وجعلها لقمة سائغة لمديرى انقلاب مايو ١٩٦٩ . فقد
جنحت فى غير موضوعية إلى الأشخاص والمسائل الشخصية من دون النفوذ
إلى النتائج والأداء العام الذى يهم الجاديين على المصلحة العامة ، وإن شئت

فاسترسل في قراءة الصفحات التالية وسوف تجد الأسباب الحقيقية لذلك الانقسام وسوف تعرف أكانت أسباب ذلك الانقسام هي وقوف الإمام الهادي ضد التوجهات التطويرية (كما تدعى)، التي قادها السيد الصادق، أم أنها طموح الأشخاص لملء منصب رئيس الوزراء. فكما هو واضح أيد الإمام الهادي تشكيل المكتب السياسي لحزب الأمة برئاسة السيد الصادق رغم اعتراض الكثيرين على الأسس التي بموجبها تم ذلك التشكيل، كذلك يتضح لك أن الإمام الهادي حاول جهده إثناء السيد الصادق عن المنافسة لمنصب رئيس الوزراء وإعطاء جهده لتطوير الحزب حتى يقوى عوده وحتى ينال السيد الصادق التجربة اللازمة على ذلك المنصب، لكن إصرار السيد الصادق لملء المنصب من دون البقاء لتطوير الحزب كما تزعم هو الذي فجر الخلاف.

أما محمد أحمد محجوب فسوف ترى من سيرته الذاتية القصيرة في الصفحات القادمة أنه ينتمي إلى مجموعة الاستقلاليين وهي الشعرة الرفيعة التي حاول الإمام عبد الرحمن إمساكها بها حتى سلم أخيراً بالبقاء في أروقة حزب الأمة، فهو ليس غريباً عن الحزب والكيان كما تزعم، فسوف يكون ردى على ذلك السؤال بالتحقيق في الإنجازات والإخفاقات التي لازمت كيان الأنصار باعتبار أن الخلاف من أكبر الإخفاقات التي واجهت كيان الأنصار.

كان وما زال لكيان الأنصار هموم وتحديات، بعضها تجاوزه الزمن بنجاحات باهرة، وبعضها أخفق فيه وما زال بعضها ماثلاً بالحاح شديد حتى كتابة هذه السطور ينتظر الحسم، فتاريخياً، وبعد انتصار قيادته الثورية على الخديويين في عام ١٨٨٥ وتحرير السودان من سطوتهم وجبروتهم، عاود الخديويون الكرة، مدعومين بالإنجليز، وأسقطوا الدولة الفتية التي أقامها الثوار في معركة كررى في صبيحة ٢ أيلول (سبتمبر) ١٨٩٨، وبذلك الهزيمة فقد السودان استقلاله مرة أخرى وانزلق تحت حكم الاحتلال، وأسقط الأمر كله في تحد واضح لأبناء وأحفاد الثوار أن يتحينوا الفرص لاستعادة الاستقلال المسلوب.

الإنجازات :

(أ) تحقيق الاستقلال الوطنى :

مع تطوير الحركة الوطنية السودانية كانت المطالبة والوقوف على الاستقلال ، من دون دعوة وحدة وادى النيل ، هى الخيار الطبيعى لكيان الأنصار ، ذلك لأن دعوة وحدة وادى النيل تحت عرش الفاروق المفدى ملك مصر والسودان تعبر عن دعوة رفعتها الحركة الوطنية المصرية وهى تناقض فى كل ركائزها كل ما مات من أجله ثوار الكيان فى نهاية القرن الماضى فى درء السيطرة الخديوية وتبعاتها فى السودان . لقد شكلت المطالبة بالاستقلال تحدياً أرقى تحقيقه مقدرات قيادات الكيان السياسية واستنزف مقدراتهم المالية والجسدية حتى استطاعت فى رجاحة واضحة أن تتحرك تحركها الناجز فى اللحظات الأخيرة لقلب موازين القوى السياسية لصالح دعوة الاستقلال التى انحازت لها القوى الوطنية السودانية بالإجماع فى ١/١/١٩٥٦ ، وهو نجاح للكيان فاق كل النجاحات وله تفاصيل كثيرة ومثيرة لا يسمح المجال لسردها هنا .

(ب) فى تطور آخر للنجاحات الباهرة ، أفرزت مسيرة المطالبة بالاستقلال الوطنى عن دولتى الحكم الثنائى ، عبر سنوات الاحتلال تأسيس وتنظيم حزب الأمة ونموه كجناح سياسى للكيان ، قبل عبوره الكيان التعامل مع أفكار وآراء وممارسات لم يكن ميسوراً له قبولها أو الإلمام بها أو التعرف عليها حينما أسسه الثوار على نهاية القرن الهجرى الماضى ، فقد تنسم الكيان عبر حزب الأمة رياح التغيير الوافدة من الغرب بقبول الديمقراطية الغربية كأساس للحكم فى السودان ، وبذلك قبل التعايش مع الآخرين ، وقبل أيضاً فكرة التعددية الحزبية المبنية على الأهداف والأفكار المتباينة ، ومع ذلك احتفظ الكيان بكثير من الموروث من آدابه العامة وتقاليده الجهادية التى طفت إلى السطح فى أكثر من موقف فى لحظات حرجة من سيرته السياسية .

لقد خطط ونظر مؤسسو حزب الأمة بقيادة ورعاية الإمام عبد الرحمن

المهدى أسس وتقاليد، بعضها مكتوب وبعضها متعارف عليه، للتعامل بين اللافنة السياسية ممثلة في الحزب وكيان الأنصار، فمزجوا وأدخلوا أيسر ما في الاثنين للتوافق المرغوب في العمل السياسى العام ورفعوا كما ذكرت في أكثر من مقال كل أنصارى حزب أمة وليس كل حزب أمة أنصارى، حتى لا يُظن أن حزب الأمة حكر للأنصار وحدهم، رغم اعتماده كلياً على وجودهم المكثف والأساسى في صفوفه. لقد مهد ذلك الشعار الطريق سهلاً لعدد من الأعراق والكيانات السودانية والطرق الصوفية للانضمام لحزب الأمة ولمسيرة الاستقلال التى قادها، كما فتح المجال لأعلام بارزين ومفكرين قياديين أثروا مسيرة الاستقلال بخطط وأفكار وآراء وجدت في الحزب منبراً للتعبير عن نفسها وفي أدائه العام نهجاً لتحقيقها. ولقد تبوأ نفر غير قليل من أولئك المؤسسين المكانات القيادية المرموقة التى تتناسب ومقدراتهم من دون تحيز لعرق أو كيان أو أسرة.

لقد لعبت شخصية الإمام عبد الرحمن دوراً أساسياً في تهيئة المناخ المناسب لتلك الإنجازات، فقد عرف سيادته مقدرات الرجال وطموحاتهم وفتح الطريق واسعاً أمام تلك الطموحات واستطاع أن يجمع حوله أسوداً أقوياء قادوا السودان في نهاية المطاف لنيل استقلاله، وحقق عبر الأجهزة والمشاورات الخاصة والعامة لكل طامح طموحه حسب مقدراته المشروعة، فوزع الأدوار من دون الاستجابة لضغوط الجماعات أو الأسر وخاصة أسرته لما لها من مكان خاص في كيان الأنصار، وبذلك النهج والأسلوب كان حزب الأمة مجموعة متجانسة وأسرّة واحدة حسده عليها الكثيرون.

لقد نقل لنا الكثيرون عن السلف أن الإمام عبد الرحمن رفض طلباً لعدد من أهله وبعض شيوخ الأنصار حينما طلبوا منه بعد انتخابات ١٩٥٧ ترشيح ابنه الصديق، رئيس حزب الأمة آنذاك ليتولى رئاسة الوزارة عن حزب الأمة، بدلاً من الأمير لاي عبد الله بك خليل. فرفض الإمام عبد الرحمن اقتراحهم ذلك في حسم شديد وقال لهم عبد الله والصديق كلهم أبنائى، ولم يدخل تلك الوزارة من أهله سوى الدكتور مأمون حسين شريف الذى عين وزيراً للصحة

على عمر ناضج وتجربة ثرية ومؤهل علمي وتخصص مكنه من تلك المكانة بين أقرانه في الحزب .

الإخفاقات :

لقد شهد حزب الأمة عبر تاريخه الوطنى الطويل منذ أن تم إعلانه فى عام ١٩٤٥ ، ثلاثة أحداث خطيرة كانت تهدف إلى شل حركته وتقسيم صفوفه - حتى يحول ذلك دون تحقيقه للأهداف الوطنية التى قام الحزب من أجلها .

المحاولة الأولى سنة ١٩٥١ :

ابتدأ الاستعمار البريطانى تلك المحاولة حين تم تأسيس الحزب الجمهورى الاشتراكى فى عام ١٩٥١ كترىاق مضاد لحزب الأمة وذلك من زعماء العشائر بل وبعض القيادات التاريخية أمثال الناظر بابو نمر الذى واجه التهديد من قبل الإدارة البريطانية بتقسيم نظارته إذا لم يتخلل عن الوقوف بجانب حزب الأمة والإمام عبدالرحمن الذى تربطه به صلة المصاهرة - فاضطر الناظر وتوجيه من الإمام نفسه إلى مسايرتهم ، وكذلك واجه الناظر عبد الجبار حسنين زكى الدين نفس الضغط - حدث كل ذلك عندما ألقى حزب الأمة القفاز فى وجه حكومة السودان آنذاك بإصراره على إعلان الحكم الذاتى من داخل الجمعية التشريعية فى منتصف عام ١٩٥١ - ومع أن الإدارة البريطانية التى فوجئت بالاقتراح سعت بكل الوسائل إلى تأجيل التصويت على ذلك الموضوع الخطير حينما وقف السكرتير الإدارى فى تلك الجلسة التاريخية يهدد بالثبور وعظائم الأمور إذا لم يسحب الحزب اقتراحه إلا أن النتيجة النهائية كانت إلى جانب رجال حزب الأمة الأشداء حيث جاءت ٣٩ إلى ٣٨ صوتاً بواقع صوت واحد مسجلين من خلال تلك المداولات التاريخية صفحات رائعة ومشرفة فى تاريخ السودان الحديث إضافة إلى ذلك السجل الوطنى الرائد لتنظيم الأنصار - وهكذا لم تجد الإدارة البريطانية إلا أن تعمل لإحداث أساليب الانقسام والفتنة بعد أن تجاهلت فى الوقت نفسه ما تمخضت عنه تلك الجلسة ، ما جاء على لسان سكرتيرها الإدارى بأن الوقت لم يكن بعد لتمليك السودانين

لإرادتهم (الحكم الذاتي) وذلك أمر أدى في نهاية الأمر إلى تعريتهم وكشف نواياهم بل وإلى وحدة الفصائل السودانية ووقوفهم إلى جانب الاستقلال الذى قام حزب الأمة من أجله وخاض الإمام عبدالرحمن المهدي أشرس المعارك بأن يكون السودان للسودانيين .

محاولة الانقسام الثانية ١٩٥٧ (حزب التحرير الوطنى)

إذا كانت عملية الانقسام الأولى في حزب الأمة قد قامت بها الإدارة البريطانية فإننا نجد المحاولة الثانية قد جاءت هذه المرة من الطرف الآخر للحكم الثنائى - حيث قامت مصر بتشجيع أبناء الخليفة عبدالله لتأسيس حزب التحرير الوطنى الذى اعتمد على أبناء الخليفة عبدالله التعايشى على حساب حزب الأمة ومع أن الانقسام الثانى لم يكن في خطورة الذى سبقه إلا أننا نجده قد جاء يحمل تناقضات القرن الماضى وإفرازات الصراع بين الخليفة عبدالله التعايشى والأشراف ، ومع بزوغ نجم الإمام عبدالرحمن في العشرينات وقيادته لكيان الأنصار بإجماع متناه ، وانخراط معظم أبناء الخليفة بالعمل في دواوين الحكومة وابتعادهم عن الساحة السياسية ليقوم حزب الأمة في منتصف الأربعينات دون أن يكون لأبناء الخليفة دور واضح في عملية تأسيسه ولهذا قام بعضهم بالابتعاد عنه بل ومقاطعة انتخابات عام ١٩٥٣م على الرغم من الجهد الكبير الذى بذله الإمام عبدالرحمن لإقناعهم والانخراط معه ، وقد قام السيد عمر الخليفة عبدالله التعايشى أكبر أبناء الخليفة والذى كان يتلقى تعليمه في مصر بالتصدي مع نفر آخر من أبناء الخليفة لحزب الأمة وتمكنوا بتشجيع من الحكومة المصرية بإعلان حزب التحرير الوطنى في عام ١٩٥٧م والذى أطلق عليه بعضهم (حزب الأمة القوى) والسعى لاستقطاب الأنصار بالدوائر في غرب السودان ، ولكن أبناء الأنصار كانوا قد ارتبطوا بالبيعة للإمام عبدالرحمن ونتيجة لذلك واجهت قيادات الحزب الجديدة (حزب التحرير) هزيمة نكراء في انتخابات ١٩٥٧م وذلك بعد أن اضطر الإمام عبدالرحمن لمواجهة حاسمة - ووجه على سبيل المثال ابنه الهادى بالترشيح ضد ابن أخته السيد محمد المهدي الخليفة في دائرة كوستى الجنوبية - ليحرز الهادى المهدي

انتصاراً كبيراً على منافسه مثل ما لحقت بعناصر الحزب الأخرى هزيمة نكراء في كافة أنحاء السودان ، ويذكر أن حزب التحرير قام بالتنسيق مع الحزب الوطنى الاتحادى ضد حزب الأمة وحزب الشعب الديمقراطى اىدى تم إثر لقاء السيدين الشهير .

وعقب وفاة الإمام عبدالرحمن ١٩٥٩ قام الإمام الصديق برفع شعار تماسك وتوحيد كيان الأنصار ليتجاوب أبناء الخليفة للانخراط من جديد في حزب الأمة وحل حزبهم الوليد في مصالحة كاملة فتلاشت الخلافات تقريباً وشارك أبناء الخليفة في حكومات حزب الأمة بعد ذلك فتم تمثيل السيد داؤد الخليفة في مجلس السيادة وتم تعيين السيد محمد داؤد الخليفة وزيراً للدفاع .

★ راجع :

- رسالة الماجستير الفاتح عبدالسلام
عن حزب الأمة ٥٤ - ١٩٦٩م
جامعة الخرطوم مارس ١٩٧٩م

- حركة الوطنيين في السودان The Nationalist Movement in nu Sudan
edit by محاسن عبد القادر حاج الصافى
by The instituti j A F صفحات ١٣٩ - ١٥٤
صدر في معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية جامعة الخرطوم ١٩٨٩م
مطبوعة جامعة الخرطوم

المحاولة الثالثة :

ومع أن المحاولة الأولى والثانية كانت قد قامت بهما دولتا الحكم الثانى متمثلة في بريطانيا ومصر إلا أن أخطر إخفاق واجه الكيان هو انقسام حزب الأمة على عهد الديمقراطية الثانية (١٩٦٤ - ١٩٦٩) ، التى تلت سقوط الحكم العسكرى الأول برئاسة الفريق إبراهيم عبود ، وهو انقسام عانت منه القواعد والقيادات فهز أوصالها وأفقدتها التوازن والقامة المملودة التى كانوا

يتباهون بها ، فدخل الخلاف كل منزل ، وزعزع كل أسرة ، وكلف تجاوزه الكثير ، وترك آلام جراحات مازال بعضها ينزف .

فمن المعروف تاريخياً أن الفريق لإبراهيم عبود استولى على السلطة صبيحة ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٨ ، فحل الأحزاب وحظر نشاطها السياسي ، وانتقل الإمام عبد الرحمن إلى جوار ربه في آذار (مارس) ١٩٥٩ ، وخلفه في هدوء كامل ابنه الأكبر الصديق كإمام للأنصار وزعيم للكيان ، وانتقل الإمام الصديق إلى جوار ربه مبكياً على شبابه في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦١ ، وترك وهو على فراش موته وصيته على مسمع من الحاضرين تقول في كلمات واضحة أنه يوصى بتشكيل مجلس للأسرة من أحفاد المهدي «عبد الله الفاضل المهدي ، والهادي عبد الرحمن المهدي ، ويحيى عبد الرحمن المهدي ، واحمد عبد الرحمن المهدي ، والصادق الصديق المهدي» على أن يختاروا من بينهم إماماً للأنصار ، وعملاً بتلك الوصية ، اختار المعنيون بالأمر ، في داخل قبة الإمام المهدي وقبل مواراة الثرى جثمان الإمام الصديق ، اختاروا الهادي عبد الرحمن المهدي ليكون إماماً للأنصار ، وبايعوه واحداً تلو الآخر ، ثم أعلنوا اسمه على جموع الأنصار المنتظرة في قبة الإمام المهدي ، فأيد الحاضرون ذلك الاختيار وألحقوه ببيعة جماعية من دون تحفظ أو شرط فأصبح الإمام الهادي بحكم العرف والتقليد زعيماً للحزب والكيان وله شوري ملزمة إلزام البيعة المعقودة بينهم وقتها .

وظل الحال على ما هو عليه حتى سقوط حكم عبود في ثورة شعبية في ٢١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٤ ، فسمح للأحزاب بمعاودة نشاطها السياسي لتهيئة البلاد لانتخابات ديمقراطية عامة ، وشكل حزب الأمة برعاية الإمام الهادي المهدي مكتباً سياسياً برئاسة السيد الصادق المهدي ، وكانت الانتخابات ونال الحزب أكبر كتلة برلمانية سمحت له بالمناورة على القدح المعلى في حكومة ائتلافية بينه وبين الحزب الاتحادي الديمقراطي ، فكانت رئاسة الوزارة من نصيبه ملأها بعد التشاور بين هيئاته وقياداته المختلفة بالسيد محمد أحمد محبوب المحامي ، الشخصية السودانية المعروفة .

قاعات الإمام الهادي المهدي :

كان للإمام المهدي قاعات متعددة أهمها قناته التامة بأن البيعة العامة التي انعقدت له بالإمامة من أبناء المهدي وجموع الأنصار في قبة الإمام المهدي عند تشييع جثمان الإمام الصديق في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦١، وضعت له حق السبق في الزعامة الدينية والسياسية لكيان الأنصار وحزب الأمة، وبها يكون له حق الرعاية التي هي بمقام الصدارة والرئاسة الحقيقية من المقامين، أما رئاسة حزب الأمة، فهي رئاسة تنظيمية لا ترفع لتنافس زعامته وقيادته للكيان والحزب، وعليه، فله حق شوري، مادام لم يطالب لنفسه بشيء، يجب اعتبارها والتفاكر حولها والتوجه بها في القضايا المصيرية التي تهم مسيرة الحزب والكيان، وهو تقليد معمول به، وحظي به الإمامان السابقان (عبد الرحمن والصديق) من قبله، فهو سلفي على نهج أبيه وأخيه عندما كان الأول إماماً للأنصار والثاني رئيساً لحزب الأمة، فقد اكتفى أولئك بالزعامة الدينية السياسية ونأوا بأنفسهم عن المنافسة المباشرة على المناصب التنفيذية الحكومية التي تجلبها انتصارات الحزب، وعندما تشتد المنافسة على وضع فلهم بحق الرعاية، دور توفيقى يلعبونه لتفادي الفرقة والخلاف، وعلى بداية الديمقراطية الثانية، مارس الإمام الهادي ذلك الدور التوفيقى حينما أفتى في نزاع تكوين المكتب السياسى للحزب بمباركة رئاسة السيد الصادق المهدي، وتأيدها مع إدخال بعض التعديلات والشخصيات، رغم الاعتراض الشديد من كثيرين على عدم ديمقراطية ذلك التكوين والمطالبة بعرض الأمر كله على مؤتمر الحزب الذي كان ماثلاً للانعقاد وقتها ليفصل فيه، ومع ذلك قبل الجميع بتوجيهه، كذلك ترك أمر اختيار مرشحي الحزب في الانتخابات العامة لذلك المكتب ولم يفرض مرشحاً بعينه، كما قبل في تقليدية تامة، بعد ظهور نتائج الانتخابات العامة، على أن يقوم سياسيو الحزب بتشكيل حكومتهم بالأسلوب الذي يرتضونه مع الحزب الخليف، ولم يفرض شخصاً بعينه، فهو لم يفرض أو يرشح محمد أحمد محبوب لرئاسة الوزارة وقتها، فقد تم ذلك الاختيار في موضوعية تامة في حضور كل زعماء حزب الأمة حسناً للتنافس الحاد الذي كان ملماً به

من وراء الكواليس بينهم، وهو اختيار تم من دون شرط مسبق بالتخلي عن المنصب للسيد الصادق حين دخوله البرلمان .

وعلى قرابة العام من رئاسة السيد محمد أحمد محبوب للحكومة، أكمل السيد الصادق ثلاثين عاماً من عمره، وهى السن القانونية التى مكنت له دخول البرلمان، من ثم بدأت تحركات خطط لها من مجموعة من بعض برلمانيى حزب الأمة لتنحية محمد أحمد محبوب من رئاسة الوزارة واستبداله بالسيد الصادق، فقد اتهم أولئك النفر حكومة السيد محبوب بالفشل، ثم شككوا فى ولائه للحزب والكيان، وهو بعض ما سقت فى سؤالك، فوصفوه بعباء السبيل الذى لا يطابق سلوكه الاجتماعى أو أسلوب حياته سلوك قيادات الأنصار، ووصل الأمر إلى طريق مسدود برفض الإمام الهادى قبول مبدأ تنحي محمد أحمد محبوب واستبداله بالسيد الصادق المهدي، الذى كان يظنه بواقع الأمور المعاشة والممارسة صغيراً فى سنه وتنقصه التجربة لتحمل المسؤولية التى يصبو إليها، فلا يعقل أن يبدأ السيد الصادق حياته العملية والسياسية بوظيفة رئيس الوزراء، فهناك متسع من الوقت لتلبية تلك الطموحات فى المستقبل، كذلك كان يرى أن الظروف التى أدت إلى اختيار محمد أحمد محبوب لرئاسة الوزارة ما زالت قائمة، فلم تطل الأزمات السياسية أو الكوارث والنكبات ما يحتم مراجعة سياسية كاملة للموقف، فدخول السيد الصادق لم يأت بظرف جديد يوجب الإلحاح الشديد بالمراجعة والتغيير، وعليه، وهو بحق الرعاية وتفادياً للفرقة والشتات يطلب من النواب الذين ينادون بالتغيير التخلي عن تلك الدعوة وقتها، وذلك بطلب من الهيئة البرلمانية أن تمد عمر حكومة محمد أحمد محبوب To Renew The Lease for the Govt. على حد تعبيره باللغة الإنجليزية، ومع ذلك أيدت أغلبية الهيئة البرلمانية للحزب تنحي محمد أحمد محبوب لمصلحة السيد الصادق، مما اعتبره الإمام الهادى خروجاً على المؤلف وانحيازاً عاطفياً يصعب تبريره، فلو انحازت الهيئة البرلمانية لأى من سياسى حزب الأمة المخضرمين أمثال عبد الله نقد الله أو أمين التوم أو حسن محبوب مصطفى خياراً على محمد أحمد محبوب لقصوره لوجد ذلك الانحياز

القبول منه ، أما الانحياز لابن أخيه بالصورة التي شهدها ، فقد خلقت في ذهنه أكثر من علامة استفهام . وقال ساعته أن الإمامة هي للشورى والتوفيق وذلك من نهج الإسلام ، وهي تبسقط عملياً إذا كانت الأمور تحسم في مثل الحدث الذي بين أيديهم بمواجهات عنيفة وبالتصويت على نهج ديمقراطية ويستمنستر ، وعموماً وعكس ما أوردت في سؤالك كان الإمام الهادي يظن أن هناك عملاً كبيراً ينتظر السيد الصادق في أروقة الحزب وذلك بإعادة بنائه تنظيماته الهيكلية بعد التجميد الذي أصابها طول سنوات الحكم العسكري .

لم يكن الإمام الهادي يتوقع أن ذلك الموقف التوفيقى الذي حاوله لتجنب المواجهة بين أعضاء حزبه سوف يثير عليه خلافاً سياسياً تمتد جلوره إلى انقسام شامل يتهم فيه بؤاد الديمقراطية ويقارن بكسرى والبابا الذي يمنح صكوك الغفران لمن يشاء ، كما قال السيد الصادق المهدي في إحدى نلواته ، فقد سمع عن الإمام الهادي مساء سقوط حكومة محمد أحمد محبوب « ديمقراطية من دون منطق لا تعنى شيئاً ، ونحن سائرون على طريق الزوال ١١٩ » .

وخلاصة القول ، فالذي بدأ خلافاً داخل الهيئة البرلمانية لحزب الأمة على استمرارية محمد أحمد محبوب في رئاسة الوزارة شكل المادة الأساسية لخلافات حزب الأمة ، وهو خلاف لم يشهد مثله الكيان منذ هزيمة كبرى ١٨٩٨م ، هذا هو السبب الأساسي للخلاف يا أخ غرابوى ، أما محاولتك لتبرير ذلك الخلاف بغير ما هو مكتوب أعلاه ، فيعتبر نوعاً من الارتوش والبهارات تتجاوز قلب الأمر إلى أطرافه .

توجهات السيد الصادق المهدي :

أما السيد الصادق ومن والاه من سياسى حزب الأمة ، فقد ركزوا مجهوداتهم بعد انتفاضة ٢١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٤ ، في التحركات السياسية وفي الحزب ومكاتبه السياسية والتنظيمية ، وبانتخاب السيد الصادق المهدي رئيساً للحزب بمباركة الإمام الهادي ، أصبحوا يهيمنون على الأغليات المطلقة في أى أمر يعرض على مكاتب الحزب للإقرار بشأنه . وبذلك الثقة

والتوجه بات في اعتقادهم الذي لا يقبلون جدلاً فيه ، أن زعامة الحزب هي لرئيسه وأن قراراته تصدر عن مكتبه السياسى وهيئته البرلمانية ، فقد ظنوا ساعتها أن الأمر كله أصبح بيدهم « إن شاعوا أبقوا وإن شاعوا أسقطوا » أى شخص في منصب تنفيذى باسم الحزب ، فهم ليس بالضرورة ينتظرون موافقة أو قبول الإمام لما يرون عمله مناسباً ، و هكذا أوحى تصرفاتهم .

بذلك النهج ومن الناحية العملية ، يكون أولئك نفر قد جردوا الإمام من أى دور فاعل في قرارات الحزب . السياسية ، فبدأوا يعلنون في تلميحات وتصريحات أن الإمامة للرعاية الدينية فقط ، بل تجاوز بعضهم الحذر عن ردود الفعل التى قد تنتج عن ذلك الاعتقاد ، فقالوها صراحة في تصريحات صحفية ، مما أغضب الإمام ومن والاه ، فأحاط الصراع حول رئاسة الحكومة بشكوك كبيرة وكثيرة عن النيات الحقيقية لتلك المجموعة ، وعندما أصبح أمر الخلافة حقيقة ، كان لابد من بلورته في شعارات ، فلا يعقل أن يقال صراعنا حول رئاسة الحكومة ؛ لذلك بلور السيد الصادق ومن والاه تهجمهم وفلسفتهم في الخلاف على الإمام في المعانى التالية :

١ - إنهم يريدون أن يكون الحزب عصرياً بعيداً عن الرغبة التى وصفوها في أكثر من لقاء سياسى وقتها « بالكسروية والبابوية » متناسين معنى الإمامة الإسلامى وضارين بالبيعة عرض الحائط .

٢ - ثم إنهم كانوا يرون في الإمام الهادى طموحاً غير معلن وقتها للمنافسة في انتخابات رئاسة الجمهورية الإسلامية المقترحة ، مع أن ذلك حق مشروع بحكم مركزه كإمام للأنصار ، وتحسباً وتخوفاً من تربية الإمام الهادى الدينية والأنصارية وتطلعاته لأن يكون مرشحاً باسم الكيان والحزب لتلك الرئاسة ، وحديثه المتصل عن الجمهورية الإسلامية ، فإنهم يناون بأنفسهم عن ذلك الموقف ولا يتعاطفون معه « انظر كتاب أمين التوم .. مواقف وذكريات الحركة الوطنية . السودانية صفحات ٢٤٧ - ٢٤٨ » ، حقيقة استوقفتنى تلك الصفحات كثيراً بعد الاطلاع عليها ، وتأملت في حيرة شديدة بعض التناقضات

التي تحيط بنا، فبينما نحن نباهي ونفاخر بتراثنا الإسلامى الثورى، نجد بعض كبار سياسيينا المخضرمين يتحفظون على إمام ذى ثقافة وتوجهات إسلامية، أضف إلى هذا أن الإمام الهادى كان عضواً مؤسساً فى حزب الأمة حين تأسيسه ١٩٤٥ ، فبالإضافة إلى عمله الميدانى فى الزراعة بالجزيرة أبا، مارس مهاماً سياسية كثيرة فى تكوينات شباب الأنصار وأحداث حزب الأمة، حيث شارك فى كل الوفود التى كانت تجوب البلاد بالدعوة لمبادئه الاستقلالية، وشارك فى أحداث آذار (مارس) ١٩٥٤ وكان عضواً برلمانياً فى برلمان ١٩٥٧ الذى حله الفريق عبود عن دائرة كوستى الجنوبية، وصادم مع جموع الأنصار فى أحداث المولد ١٩٦١ إبان الحكم العسكرى، وعندما عادت الديمقراطية لم يأت أى خطأ سياسى أو تكتيكى يجعل بعض سياسى حزب الأمة يتحفظون أو ينقصون من البيعة التى انعقدت له ومحاولة حصرها فى الجانب الدينى والاجتماعى فقط!!!

السيد محمد أحمد المحجوب

أما السيد محمد أحمد المحجوب المحامى، فقد ظن ساعتها أن المخطط لإسقاط رئاسته للوزارة واستبداله بالسيد الصادق المهدي، على حداثة سنه وعلم خبرته، لا يعلو أن يكون سوى حسد وغيرة من أقرانه وزملاء دربه سياسى حزب الأمة، فقد ظن ساعتها أن له رصيذاً كافياً من العطاء للحزب والكيان يجعله ينافس على المنصب، فهو زميل دراسة لهم على أيام كلية غردون، شاعر، وأديب ومهندس ثم قانونى ومحام بارز عرفوه على أيام الجبهة الاستقلالية فى الأربعينات، ثم زعيماً للمعارضة باسمهم عام ١٩٥٤ فى أول برلمان سودانى حيث رفع علم الاستقلال فى ١٩٥٦/١/١ مع السيد إسماعيل الأزهرى رئيس الوزراء آنذاك، وهو أيضاً وزير لخارجيتهم فى كل حكومات الحزب التى قادها عبد الله بك خليل قبل انقلاب عبود (حزيران «يونيو» ١٩٥٦ - ١٩٥٧/١١/١٧) ثم معارضاً جسوراً ومنتقداً عنيفاً للحكم العسكرى الأول برئاسة الفريق إبراهيم عبود ومع الديمقراطية مما جعل العسكر يأمرون باعتقاله فى تموز (يوليو) ١٩٦١ وإبعاده إلى ناكشوط بالجنوب،

وهو أيضاً رمز وممثل لهم في حكومة الهيئات التي شكلت بعد الانتفاضة الشعبية في ٢١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٤ وحتى انتخابات ١٩٦٥ ، حيث فاز بمقعد نيابى في الجمعية التأسيسية وقتها ، ومع ذلك فهو ليس بالغريب الوافد على كيان الأنصار ، فهو حفيد للأمير عبد الحليم مساعد من بنته فاطمة بنت عبد الحليم ، فجدّه عبد الحليم مساعد بطل وفارس من أبطال شيكان التي شهدت ديارها هزيمة ساحقة لقوات الجنرال الإنجليزي هكس باشا .

كان السيد محمد أحمد محبوب يعتقد أن رفقاء دربه سياسى حزب الأمة تنقصهم جميعاً الشفافية والجادية (الكسرما) لمنافسته على المنصب ، فأتوا بابن الإمام الصديق ذى الثلاثين ربيعاً ووقفوا من خلفه لمنافسته وإبعاده من دست الحكم ، فحاول جهده لكسب السيد الصادق لجانبه بإبعاده عن معسكر منافسيه وضمه لوزارته شأنه شأن عمه أحمد لتدريه وتهيته للمء منصب رئيس الوزراء في وقت لاحق ، لكن الصادق رفض عرضه ، مما جعله يكون في دوامة من أمره . لقد ظن السيد محبوب أنه يمكن أن يتم سنى دورته في الحكم دون مناكفة من منافسيه في حزب الأمة ، ثم يذهب بالتراضى لمعاش هادىء ورصيد لإنجاز جيد وخاصة أنه ناهز الستين من عمره وقت انقسام حزب الأمة ولكن كان الانقسام وبالاً عظيماً ، فقد سمع عنه ينشد يوم سقوط حكومته في الجمعية التأسيسية :

أنا يا شعب ما طويت على اللوم جراحي وما جرحت اعتقادى
وكفى المرء فخراً أن يعادى في ميادين مجده أو يعادى
هذا هو محمد أحمد محبوب الذى تزعم أنه عابر سبيل في حزب الأمة
(راجع كتاب «الديمقراطية في الميزان» للسيد محمد أحمد محبوب) .

السيد إسماعيل الأزهرى والصراع حول رئاسة الجمهورية

أما الحزب الحليف ، فقد رأى زعيمه السيد إسماعيل الأزهرى ، السياسى المخضرم ، أن الفرصة قد حانت لتفتيت حزب الأمة ، الصخرة الصماء التي قاومت وأعيت كل عوامل التعرية في السياسة السودانية . فقد أذنت الفرصة بنبد الخلاف إلى جوفه ثم تفتيته إلى أجنحة والاستفادة من ذلك التفتيت في

انتخابات رئاسة الجمهورية المزمعة ، فالصادق المهدي بقيادته إلى ذلك الخلاف والانقسام ، يدري أو لا يدري ، سوف يجنبه صلف وعناد كيان الأنصار وحزب الأمة من دعم منافسة عمه الإمام الهادي لو رأى الأخير ترشيح نفسه لذلك المنصب ، وعليه فسوف تكون رئاسة الجمهورية سهلة له متى ما أذنت الظروف بها في ظل انقسام حزب الأمة ، أضف إلى ذلك أن السيد إسماعيل الأزهرى لم يكن مولعاً بإبقاء محمد أحمد محبوب في كرسي رئاسة الوزراء ، فهو ند ومبارز له في كل المنافسات السياسية الكبرى في السودان ، فقد نافسه على رئاسة أول وزارة سودانية عام ١٩٥٤ . ثم شاركه أجماد رفع علم الاستقلال في ١/١/١٩٥٦ ، بوصفه زعيماً للمعارضة آنذاك ، أضف إلى ذلك أن محبوب أثار على السيد إسماعيل الأزهرى ، الرئيس المستديم لمجلس السيادة وقتها ، عدداً من المشاكل والعراقيل ، لمحاولاته المتعددة لتأمين صلاحيات تنفيذية لرئاسته وليدة الائتلاف الأخير ، وما محاولته تمثيل السودان منفرداً في مؤتمر أكرا بغانا إلا شاهداً على ذلك التنافس ، فقد ذهب الاثنان ، كل من منطقة تمثيل السودان في ذلك المؤتمر .

وبسقوط محمد أحمد محبوب في تموز (يوليو) ١٩٦٦ شكل السيد الصادق المهدي حكومته نيابة عن جناحه عن حزب الأمة مع الحزب الاتحادي الديمقراطي ، إلا أن شهر العسل بين السيد إسماعيل الأزهرى والصادق المهدي لم يدم طويلاً ، ففي أقل من عام اختلفا حول تعيين السيد عبد الماجد أبو حسيو وزيراً فرفض السيد الصادق ذلك التعيين مما أثار غضب السيد إسماعيل الأزهرى فقرر فض الائتلاف ، ثم سقط السيد الصادق من رئاسة الوزارة في أيار (مايو) ١٩٦٧ وعاد محمد أحمد محبوب لرئاسة الوزارة مرة أخرى باسم جناحه في حزب الأمة في أيار (مايو) ١٩٦٧ وحلت الجمعية التأسيسية بعد استقالة عدد من أعضائها مما أفقدها النصاب المطلوب لمزاولة أعمالها . وكانت انتخابات ١٩٦٨ أسوأ تعبير لذلك الخلاف ، فقد خاضها حزب الأمة منقسماً إلى أجنحة (جناح الإمام الهادي وجناح الصادق) فدخل الخلاف والشقاق كل منزل وعانت منه كل الأسر .

كانت خطة الإمام الهادي في الانتخابات واضحة، فقد صرف أمر الخلاف كله على أنه انقلاب قصر، قصير في عمره، قاده بعض سياسيي حزب الأمة لإحلال زعامة أخرى مكان زعامته، بقيادة السيد الصادق لذلك الخلاف ترجع الأمر كله إلى خلاف أسرى وأى منهما فاز، إنما يذهب فوزه في الأسرة، وعليه ففلسفة الخلاف بأنه مع الديمقراطية وضد الأسرية التي وصفوها بالكسروية والبابوية، بينما قيادة الأجنحة المتنازعة هم من الأسرة نفسها، إنما يعتبر نوعاً ما ديماجوجية السياسيين .

فاحتفظ لنفسه بحق الرعاية ولم يرشح نفسه في أى دائرة انتخابية، ثم رشح مؤيديه في كل الدوائر التي كان يتوقع الفوز بها، إلا أنه وبصفة خاصة وجه مؤيديه لإسقاط كل الزعامات والكوادر السياسية التي قادت الخلاف .

أما السيد الصادق من منطلق الزعامة والقيادة السياسية لجناحه، فقد رشح في دائرة انتخابية كما رشح كل القياديين الذين أيدوه في توجهاته واحتدم الخلاف، وتم التصويت وسقط السيد الصادق المهدي ومعظم قياديه وفاز السيد محمد أحمد محبوب .

أما الذين فازوا من جناح الصادق فقد وجلوا أنفسهم داخل الجمعية التأسيسية في حالة ضياع شديد لغياب القيادة المثابرة والجدادة للمواجهات البرلمانية المعروفة .

وشكل محمد أحمد محبوب نيابة عن الإمام حكومة ائتلافية مع الحزب الاتحادي الديمقراطي، بدأت عمليات الترميم داخل أروقة حزب الأمة لإصلاح ما أفسده الخلاف ونجحت المساعي بالصلح بإقرار الحقيقة بأن إمام الأنصار هو الرجل الأول وهو راعي الحزب والكيان وله الحق بالتوجيه والشورى فيما يرى، وهو أمر بإقرار الثوابت في حزب الأمة، فقد ضاع وقت ومجهود كبير لإثبات البديهيات، لقد تسبب ذلك الخلاف في انفرط الأمر داخل الكيان وداخل الحزب بالدرجة التي أضرت بكثير من التقاليد والقيم المتعارف عليها والتي يمارس بها العمل العام، ولكن عندما وصل الجميع نقطة البداية كانت النهاية وسقطت الديمقراطية الثانية في سهولة للعسكر، واستعجب الجميع!!!

هكذا، أما زلت ترى أن هذا الخلاف كله سببه عدم رغبة الإمام في تطوير الحزب، أم أنه حقيقة يعكس طموحات الرجال، بعضها مشروع وآخر مزائيد عليه، ففسر كما تشاء.

أما ما حدث للكيان بعد ذلك إبان عهد مايو، فقد سقناه في المقالات السابقة، خاصة فيما يتعلق بمجازر الجزيرة أبا وودنوباوى، الذى يهمنى ذكره هنا، هو أن رجالات حزب الأمة، أتوا للديمقراطية الثالثة على أشلاء شهداء الكيان، فلم الإمام الشهيد الهادى عبد الرحمن المهدي ورفاقه الأبرار من كيان الأنصار وغيرهم من المواطنين السودانيين، مهد الطريق واضحاً للديمقراطية الثالثة، وترك جروحاً ما زالت تنزف حتى حين سقوط الديمقراطية الثالثة، رذاك ما يأتى فى الصفحات اللاحقة.

جواب الدكتور صادق المهدي على السؤال الثامن لإبراهيم الغرباوى

لقد ساهمت منظومة حزب الأمة السياسية في هجرة أبناء الأنصار والدخول في هيئات وأحزاب مثل الحزب الشيوعي والبعث الاشتراكي والجهة القومية الإسلامية - ويمكن إطلاق صفة الأحزاب الهرمة التي دب فيها الشيخوخة في أوصالها عليه .

ولكن كيف حافظ حزب الأمة على المقادير السياسية في السودان ؟ وكيف يمكن كذلك من تلميع صورة الحزب لتكون أكثر نضرة وشباباً ؟ لاأوافقك الرأي فيما ذهبت إليه في أن «منظومة حزب الأمة السياسية ساهمت في هجرة أبناء الأنصار والدخول في هيئات وأحزاب مثل الحزب الشيوعي السوداني والبعث إلخ» .

فحزب الأمة ، التنظيم السياسي لكيان الأنصار ، ما زال يمثل أكبر كتلة في التنظيمات السياسية السودانية التي تتمتع بقواعد شعبية عريضة ، ففي انتخابات ١٩٥٧ نال حزب الأمة أكبر كتلة برلمانية وكذلك في انتخابات ١٩٦٥ وهكذا ظل حاله إلى أن سقطت الديمقراطية الثانية للعسكر ، ومع إطلالة مايو وتحرشاتها الواضحة ضد الكيان ، التي أسفرت عن معارك حربية كبيرة في الجزيرة أبا وودنوباوى ثم ٢ حزيران (يوليو) ١٩٧٦ شتدت أعصاب وأوتار عواطف كل القواعد الأنصارية ، في ذهول شديد لما حدث ، وفي ألم وحسرة شديدين ، استرجعت عقلها وتناست خلافاتها ، أمهددون نحن بالزوال ، ماذا يريد منا هؤلاء الشيوعيون ؟؟

فتحركت حاسة حب البقاء في أوصاله ، وأنارت دماء الشهداء المسفوحة ، بما فيهم إمامهم ، الطرق أمامها فنسجت وأمنت وحدتها

- ١٠١ -

التي عاد بها الحزب إلى موقعه الطبيعي كأكبر كتلة سياسية في السودان في انتخابات عام ١٩٨٦ .

لذلك تجددى أتحفظ كثيراً على ما تزعم ، ولعل السؤال يكون أوضح - لو تسأل عن مصير الحزب بعد أدائه العاجز في عهد الديمقراطية الثالثة - أما كيف تتخطى ذلك لكي يكون حزب الأمة أكثر نضرة وشباباً فهذا أمر مطروح للنقاش لي ولك ، فاكتب ما تشاء مع شكرى .

جواب الدكتور الصادق الهادى

على السؤال التاسع والعاشر لإبراهيم الغرباوى

لماذا حاول زعماء حزب الأمة من عائلة المهدي التأكيد على أن الإمام الهادى حى وسوف يعود وأنه عيسى المسيح وأنه المنقذ الوحيد - رغم أن المعروف أن الإمام الهادى قتل في ١٩٧٠ - ولماذا حاول ولى الدين ونصر الدين الهادى المهدي من تكريس هذه المفاهيم الخاطئة في أذهان الأنصار المقيمين في معسكراتهم في أثيوبيا ، وهل هى بمثابة توظيف سياسى اقتصادى للمعونات التى كانت ترسل لتلك الفئات لكى تدوم في معسكراتهم زهاء تسعة عشر عاماً . وما هى التعويضات التى منحت لعائلات الأنصار الذين ماتوا في أحداث الجزيرة أبا وودنوباوى في أذار (مارس) ١٩٧٠ ؟

حديثاً لماذا يحاول حزب الأمة بقيادة مبارك المهدي توقيع اتفاقية بين حزب الأمة وحركة تحرير السودان بقيادة العقيد جون قرنق - علماً أنهما طرفان نقيضان في المفاهيم الدينية والسياسية - ومن نتائج الاتفاق سوف يكون غرب السودان هو الخاسر الأعظم نسبة لأن جميع أو معظم الجنود في الرتب الدنيا في الجيش السودانى في غرب السودان وكذلك يزوج ميليشيات حزب الأمة في أتون الحرب وسوف يدفعون الثمن ، علماً أن معظم المنضوين في الميليشيات كذلك من غرب السودان !! لذا ما هى النقاط الإستراتيجية في الاتفاقية الحديثة ؟

جواب السؤال التاسع :

أنا ابن شهيد، عرفت اليتيم وتضررت منه ، فلا أنطق عن الهوى أو المزايدة السياسية مجرد الدفاع عن أسرة بعينها ، ومع ذلك ورغم الأسلوب الذى طرح به السؤال ، سوف أحاول أن أكون موضوعياً فيما أكتب . و« عيسى المسيح »

و«المنقذ الوحيد» الذى تتحدث عنه فى عفوية شديدة هو أبى «والد كاتب المذكرات» كما كتبت وهو أمير الراية الذى سقط دونها وسيد الشهداء، إمام الأنصار، أكبر وأعرق تجمع سياسى عرفه السودان فى تاريخه الحديث، نحن أبناءه لانزايد على استشهاده لأى مكسب سياسى أو مادية كما تزعم، إنما نتحدث عن الباقيات الصالحات من أعماله، نطلب لروحه الرحمة مع الصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً، فقد أوفى ما وعد، ووقف مع ما أعلن فى مذكرته المطولة لمجلس قيادة الثورة عام ١٩٧٠ والتى نلخصها فى النقاط الخمس الآتية :

- ١ - إزالة اللافتة الشيوعية عن الحكم .
- ٢ - عودة الجيش إلى الثكنات .
- ٣ - العمل على إجراء انتخابات عامة فى البلاد .
- ٤ - إطلاق سراح المعتقلين السياسيين .
- ٥ - العمل على إجازة الدستور الإسلامى المقترح من الجمعية التأسيسية ١٩٦٤ - ١٩٦٩ .

وكا رد مجلس قيادة الثورة عليه وعلى مطالبه أعلاه ، هو لإرسال ترسانة حربية، اشترك فى تهيئتها وتوفيرها أكثر من دولة لمسح الجزيرة أباً من الكرة الأرضية، وفعلوا ما أمكنهم ذلك، وقتل هو ورفاقه الشهداء برصاص الغدر .

لم نتاجر نحن أبناءه بدمه كما تزعم، فالسؤال مردود لك لتسأله إلى زعامات الجبهة الوطنية البارزين وقتها إن كانت هناك متاجرة فى الأمر، ولمعلومية السائل فليس كل قيادات وزعامات الجبهة الوطنية من أسرة المهدي، الذى نعلمه نحن عن بقاء الأنصار فى معسكراتهم فى أثيوبيا كان لهدف نبيل، قوامه استنفار مقدراتهم الحربية والقتالية لتصديع وإسقاط نظام مايو بضربات عسكرية متلاحقة. وقد نبغ زعماء الجبهة الوطنية فى الأسلوب الذى اتبعوا به الأنصار لتلك المواجهة. لقد وهب الأنصار وإمامهم أرواحهم سهلة لعودة الديمقراطية للسودان وعادت، ولكنها بكل أسف طارت من دون أن تفى لهم حقاً، فطاحت تتابعها أرواحهم ولعنة دمائهم .

لأعرف عن زعيم مرموق من زعماء حزب الأمة أو آل المهدي حاول خداع الأنصار بحياة الإمام الهادي ، إلا أنني أقول : كلنا كنا نتطلع لمعرفة الحقيقة ، فقد كنا في دوامة من الأسئلة والأطروحات عن مصير الإمام الهادي ، فالحكومة لم تسع لتوضح لنا نحن أهله وذويه . وأولياء دمه ، أمر اغتياله ، وكذلك لم تسلمنا جثثانه أو ترشدنا لقبره ، فماذا كنت تنتظر ، أنصدق المدياع !! لذلك كان هناك مجال خصص لينطق كل على هواه . أما بعد المصالحة بين جعفر نمري والصادق المهدي عام ١٩٧٧ ، فقد أعلن الصادق المهدي ونصر الدين الهادي المهدي فوق أكثر من منبر نبأ استشهاد الإمام الهادي لجموع الأنصار ، حدث ذلك في أم درمان في خطبة عيد الأضحى المبارك وفي الجزيرة أبا في صلاة عيد الفطر ، فقطعت جبهة قول كل خطيب .

أما بخصوص التعويضات لأسر شهداء الأنصار بما فيهم إمامهم ، فقد طالبت ، قبل أن تطيح حكومة السيد الصادق المهدي على عهد الديمقراطية الثالثة ، برد اعتبار الشهداء وذلك بالتحقيق مع صناع القرار أعضاء مجلس قيادة الثورة عام ١٩٧٠ الذي تسبب قرارهم في إبادة آلاف من الأنصار ، فقد كنت حريصاً بأن نقف على تفاصيل الذي حدث حتى يكون في السجلات وفي دار الوثائق والتاريخ ، أما محاسبة صناع القرار بعد تسجيل الذي حدث ، فترك أمره لشيوخ الأنصار . ليقروا مايرون ، راجع جريدة الراية السودانية آب (أغسطس) ١٩٨٨ ومجلة الأشقاء السودانية آذار (مارس) - آيار (مايو) ١٩٨٩ . كذلك طالبت برصد أسماء كل شهداء الديمقراطية الذين استشهدوا تضرروا في أحداث الجزيرة أبا وودنوباوي ، و٢ تموز (يوليو) ١٩٧٦ ، وكنت أرى أن تدفع الديمقراطية الثالثة مهرها لهم في شكل تسهيلات وتعويضات مناسبة لأسرهم (خاصة الأرامل واليتامى) تمكنهم من العيش الكريم أسوة بمن تضرروا من القوات المسلحة في تلك المساجلات الدموية ، لكن بكل أسف لم يحدث شيء من ذلك الاتجاه ، فالذي حدث هو هرج ومرج يتأفف العاقل عن ذكره وكفى .

أما نحن أسرة الإمام الهادي المهدي ، فلم ترد لنا الديمقراطية الثالثة حتى

اليوم حقوق والدنا الإمام الشهيد الشرعية التي صادرها نظام مايو، بل طالبتنا في غلظة أن نلجأ للقضاء، ففعلنا، وأصدر القضاء العادل حكمه لصالحنا في جلستين فقط، ورغم أن ذلك لم ترد لنا حقوقنا المصادرة حتى اليوم. فماذا تقول؟!؟

جواب السؤال العاشر :

أما سؤالك عن اتفاقية مبارك عبد الله الفاضل المهدي باسم حزب الأمة، وجون قرنق عن حركة تحرير السودان فلا تفاصيل عندي عن إستراتيجيات ذلك الاتفاق، وكل الذي أعلمه عن ذلك الاتفاق هو ما نشرته وسائل الإعلام المقروءة، وأنا شخصياً أوافقك الرأي في أن كلاً من جون قرنق ومبارك المهدي، عندما كان وزيراً للداخلية في حكومة السيد الصادق المهدي الأخيرة، كانا يقفان على طرفي نقيض، فقد اعتقل السيد مبارك كل الذين تعاطفوا مع جون قرنق في نلوة امبو بأثيوبيا، هذا من جهة، أما من الجهة الأخرى فكلنا يعلم علم اليقين بأن جون قرنق لعب دوراً واضحاً في هدم حكومة الديمقراطية الثالثة بقيادة السيد الصادق المهدي، وذلك برفضه لأي نوع من التفاهم أو الاتفاق مع رئيس الوزراء لإيقاف حرب الجنوب، فقد كان جون قرنق يعرف سلفاً كم كانت تستنزف تلك الحروب من إيرادات ومقدرات حكومة الديمقراطية الثالثة الهشة، حقيقة أن جون قرنق، بدلاً أن يكون معقولاً في مواقفه، تمادى في الضغط العسكري على تلك الحكومة واحتل منها عنوة كل المواقع التي يحتلها الآن لربكها ثم إسقاطها وحدث ذلك بالفعل، فقد طاحت للعسكر.

لقد أفادت بعض مصادري أن هناك أعضاء بارزين من الإخوة الشماليين، في حركة قرنق كانوا يصرون على أنهم سوف لن يمنحوا السيد الصادق المهدي شرف إيقاف حرب الجنوب، فإن تم ذلك، فسوف يذهب شرف ذلك لجهة سياسية منافسة، علماً بأن السيد الصادق هو الذي سهل لجون قرنق كثيراً من مهامه الصعبة إبان بناء قوته العسكرية لمصادمة جعفر نميري على عهد مايو. فنصرفات جون قرنق في التمداد في تخطي رئيس الوزراء

وتجاهله، إنما هو نكران للجميل، فقد أفاد أكثر من مصدر وجهة، وقتها، أن جون قرنق وكل الذين يتعاطفون معه سوف يقفون سياسياً ضد حزب الأمة وكيان الأنصار قبيل الإطاحة بحكومتهم .

أعتقد من تلك الخلفيات، وبعد سقوط حكومة السيد الصادق الأخيرة، كان مسموحاً لمبارك عبدالله أن يناقش بالصوت العالى ويفاوض زعماء حركة قرنق لتصحيح بعض المواقف والمفاهيم السياسية المتشددة من الجانبين، خاصة ضلوع قرنق غير المفهوم في التعاون مع إسرائيل، أما أن يصل ذلك النقاش إلى درجة إمضاء عقود ومواثيق باسم الأنصار وحزب الأمة لإرجاع الديمقراطية، مع حركة ليست من الديمقراطية في شيء، ولا تتعامل بالديمقراطية فيما تمارسه من سياسة بزعم أنها ثورة وتتعامل بالحسم الثوري. في تقديري أن مثل ذلك الالتزام هو فوق طاقة الكثيرين منا لاستيعابه أو قبوله، فنحن لسنا طلاب سلطة فقط نريد استرجاعها متى ما طاحت وبأى ثمن، اللهم إلا إذا اقتنعنا بوجهة النظر التي تقول ليس في السياسة صداقة أو عداة ثابت !!

إلا أن لجون قرنق عداة ثابتة للعروبة والإسلام فقد عُرف عنه ذلك أثناء دراسته في جامعة أيوا بأميركا. لقد انتقص جون قرنق من الديمقراطية حينما رفض العودة إلى السودان على عهد الانتفاضة في نيسان (أبريل) ١٩٨٥ للوقوف مع أبناء وبنات السودان لتثبيت نهجها، ثم كان معولاً هداماً في الإطاحة بها حينما تمادى في حرب الجنوب، حتى سقوطها !! في تقديري المتواضع أن جون قرنق لم يقدم على اتفاقياته الأخيرة إلا بعد ما استوثق أن كل بنودها تدعم زعامته وتبنى أمجاده وريادته لديمقراطية رابعة يكون هو فارس عودتها .

(انتهى)

- ١٠٧ -

وقائع الجلسة الختامية لمحكمة قتلة الإمام الشهيد الهادي المهدي
ومرافقيه .

وصف تفصيل لأحداث الكرمك :

Judicial Form 'A 3 C (1)

Summary of Salient Facts

1. Name of accused. .

١ - عبيد كمبال الأمين .

٢ - مختار طلحة .

٣ - أحمد حسين بامسيكه .

٤ - وداعة علي سيد أحمد .

٥ - عبد الله إبراهيم حبيب الله .

٦ - تيراب الغالي نور .

11. Name of deceased (if any).

١ - الهادي عبد الرحمن المهدي .

٢ - سيف الدين الناجي .

٣ - محمد أحمد مصطفى .

111. Date and place of occurrence.

القتيل الأول جوار قرية أونسة

القتيل الثاني جوار قرية أونسة ١٩٧٠/٣/٣٠ م

القتيل الثالث خور النوم .. باو

V. Date and place of first report.

الدمازين في ١٦/٤/١٩٨٧ م .

V. Relationship of the parties and witnesses.

القتيل الثالث خال القتييل الأول .

القتيل الثاني ملازم للقتيل الأول باعتباره إماماً لطائفة الأنصار .

الوقائع التي صدقتها المحكمة :

الوقائع الأساسية كما وردت على لسان شهود الاتهام تسلسلها تتلخص في أنه وبتاريخ مارس ١٩٧٠م قرر الرئيس السابق جعفر محمد نميري القيام بزيارات تفقدية لمناطق النيل الأبيض شرقاً حتى سنار وشمالاً حتى الدويم وجنوباً حتى الجبلين وغرباً حتى تندلى. وصاحب ذلك زيارات لبعض المسؤولين للجزيرة أبا بقصد التفاوض مع الإمام الهادي لموقفه من نظام ثورة مايو وترتب على ذلك وصول حشود كبيرة من الأنصار توافدت على الجزيرة أبا. وقد حضر من قبل النظام الحاكم آنذاك كمتفاوض كل من الفاتح عابدون وإسماعيل السيد عبد الله مبدئين رغبة النظام في التفاوض مع الصادق المهدي وأن يعم التفاوض مع الخرطوم، وقد استجاب الإمام الهادي لهذه الرغبة وبعد أن أكد له الفاتح عابدون سلامة الصادق المهدي وبموجب ذلك غادر الصادق المهدي الجزيرة أبا للخرطوم حيث اعتقل هناك وعلى أثر اعتقاله تجمعت أعداد كبيرة من الأنصار بالجزيرة أبا وخاطبهم الإمام الهادي وأوضح لهم حقيقة الموقف وطلب منهم الصبر وأنه سيعالج الموقف بهلوء. وبالفعل انفضّ الجمع غير أن وفود الأنصار لا تزال تتقاطر نحو الجزيرة أبا.

ظلت الأحداث متلاحقة حيث تم احتلال المخرج والمعصرة التابعة لدائرة المهدي بواسطة السلطة الحاكمة آنذاك وتم إنزال أعداد من الآليات والجنود بربك ثم بعد ذلك بدأت زيارة الرئيس السابق لمنطقة النيل الأبيض بالوجه الذي أشرنا إليه.

خلال ذلك كانت الوفود تتقاطر نحو الجزيرة أبا للتفاوض مع الإمام الهادي مثل اللواء أحمد عبد الوهاب وزيادة أرباب وآخرين ثم حضرت قوة عسكرية على رأسها أبو القاسم محمد إبراهيم وفاروق حمد الله ويوسف أحمد يوسف للجزيرة أبا وعند مقابلتهم للإمام الهادي أوضحوا أن القصد من حضورهم إقامة نقطة للشرطة بالجزيرة أبا وبعد نقاش أسندت صلاحيات الشرطة لعمدة الجزيرة أبا على أن يستعين بشرطة المراجع عند الضرورة.

في هذا الوقت تم إعلان زيارة الرئيس السابق للجزيرة أبا فتوصل مجلس شورى الأنصار أن الغرض من الزيارة هو اعتقال الإمام الهادي فعباً ذلك الشعور العام داخل الجزيرة أبا وتم رفع شعارات سياسية توضح المطالب .

في يوم الخميس حضرت قوة كبيرة من القوات المسلحة وعدد ٤٣ قطعة من دبابات وعربات عسكرية ودبابات برمائية مختركة الجاسر في اتجاه الجزيرة أبا فتعرضت لها مجموعة كبيرة جداً من الأنصار واحتجزتها وكان على رأس هذه القوة كل من المقدم عثمان أمين قائد حامية كوستى في ذاك الوقت ومحمد أحمد أبو الذهب وأفادوا بأنهم موفدون من قبل الضباط الأحرار للتفاوض مع الإمام الهادي واستقلوا عربة شاهد الاتهام الأول خالد محمد إبراهيم متجهين للسراى حيث الإمام الهادي وتمخضت المقابلة عن اتفاقية من ست نقاط وقع عليها الإمام الهادي من جانب والمقدم عثمان أمين ومحمد أحمد أبو الذهب من جانب السلطة وهي اتفاقية سياسية في المقام الأول .

في صبيحة الجمعة أشيع أن الرئيس السابق قطع زيارته لربك وعاد للخرطوم وعند الساعة الثالثة بعد الظهر وقع قصف مدفعي مكثف على الجزيرة أبا حيث بدأت القوة المرابطة في إطلاق النار وبدأت تتقدم نحو الجاسر ونصبت القوات المسلحة المدافع بمنطقة الجاسر وظلت تضرب الحشود ، وإزاء مقاومة الأنصار لها انسحبت القوة العسكرية إلى ربك وفقد الأنصار الكثير من القتلى والجرحى وبلغ عدد القتلى ١٠٤ قتلى .

في صبيحة السبت حدثت بعض المناوشات الخفيفة واستمر ذلك طيلة اليوم .

في صباح الأحد بدأ ضرب مكثف من جهة الشرق من حجر عسلاية ومن الغرب من الطويلة بالمدفعية وصاحب ذلك غارات جوية واستمر ذلك طيلة اليوم حتى مغيب الشمس وكانت الطائرات قد ألقت بمنشورات تطالب الموظفين والمسؤولين بإخلاء الجزيرة أبا غير أنه لم يتمكن أحد من الخروج بسبب القصف الجوي المستمر .

في يوم الاثنين بدأ الضرب مبكراً وبصورة أعنف وتزامن ذلك مع أحداث ودنوباي بأم درمان .

وفي مساء نفس اليوم بدأ التشاور داخل الجزيرة أبا بخصوص هجرة الإمام الهادي واتفق مجلس الشورى على ذلك وأن يكون أمر الجزيرة أبا بعد هجرة الإمام لشاهد الاتهام الأول خالد محمد إبراهيم ، وحقناً للدماء وإيقافاً لنزيف الدم طلب الإمام الهادي من شاهد الاتهام الأول تسليم الجزيرة أبا بعد هجرته وعند الساعات الأولى من فجر الثلاثاء وعند الواحدة صباحاً خرج الإمام الهادي من الجزيرة أبا يرافقه كل من عمر مصطفى ومحمد أحمد مصطفى وعباس أحمد عمر وسيف الدين الناجي ومحمد علي يونس ومحمد محمد صادق الكاروري وعز الدين الشيخ وعبد المطلب بابكر خوجلي والفاضل الهادي بعربة لوري عن طريق منطقة الجاسر إلى أن وصلوا لمنطقة خور أحمر حيث قابلهم عمال الطرق وعلى رأسهم شاهد الاتهام العاشر أبوبكر عبده فرح .

عند وصول الإمام الهادي ومرافقيه لتلك المنطقة انقسموا إلى مجموعتين لتحرس سكان قرية أونسه بهم مما اضطرهم لتهديده وتم الاتفاق على أن تتجاوز المجموعة الأولى خور أحمر وتدخل في الأراضي الأثيوبية وتظل المجموعة الثانية مرابطة للحراسة ، وقد ضمت المجموعة الأولى كلا من الإمام الهادي ومحمد أحمد مصطفى وعمر مصطفى وسيف الدين الناجي والفاضل الهادي وضمت المجموعة الثانية كلا من عباس أحمد عمر ومحمد محمد صادق الكاروري وعز الدين الشيخ وعبد المطلب بابكر ، وتحركت المجموعة الأولى صوب الحدود الأثيوبية .

في تلك الأثناء كان شاهد الاتهام العاشر أبوبكر عبده فرح قد أبلغ سلطات الشرطة بالكرمك بوجود هذه المجموعة المسلحة وترتب على هذا البلاغ أن تحرك الملازم مختار طلحة على رأس قوة من الشرطة متعقباً هذه المجموعة ووصل الملازم مختار طلحة ومعه شهاد الاتهام الحادي عشر حسن أحمد دفع الله ورفقتهم قوة من الشرطة ولم يستطيعوا التوغل للداخل بالعربات

لوعورة الطريق فترجلوا منها وأشار لهم الأهالى لمكان المجموعة فتوجهوا إليها فوجدوا المجموعة الثانية محاطة بأهالى منطقة أونسه فاستسلمت للشرطة دون أى مقاومة وتم تجريدهم من الأسلحة التى كانت بحوزتهم وتم إيثاقهم بالحبال من الخلف وتركت معهم حراسة من أفراد الشرطة مكونة من وداعة على سيد أحمد (المتهم الثالث) وعبدالرحمن دفع الله (شاهد الاتهام السادس) وعباس أحمد عباس (شاهد الاتهام السابع) وتحرك الملازم مختار طلحة لملاحقة المجموعة الأولى يرافقه كل من أفراد الشرطة عبيد كمبال الأمين (المتهم الأول) وأحمد سكاك قطية (شاهد الاتهام الخامس) وفضل الله عشاناً وعثمان عبدالمجيد (شاهد الاتهام الثامن) ورمضان سعيد، وتوغلوا داخل غابة كثيفة الأشجار وعرة المسالك وعلى بعد ثلاثة أميال تقريباً من مكان المجموعة الأولى وصلوا لمنطقة خور رملى عميق حيث شاهدوا مجموعة جالسة على الأرض ويبدو أنها فى انتظار المجموعة الثانية، تقدمت القوة نحو مكان المجموعة وطلبوا منهم أن يسلموا أسلحتهم فاستسلموا برفع الأيدي وبدأ تفتيش المجموعة بواسطة قوة الشرطة، ظهرت بوادر مقاومة من جانب المجموعة للقوة حيث قاوم الفاضل الهادى إجراءات التفتيش التى كان يقوم بها الجندى أحمد سكاك قطية (شاهد الاتهام الخامس) وعندما تدخل الملازم مختار طلحة لمساعدته هجم عليه الفاضل الهادى محاولاً انتزاع مدفعه وأثناء ذلك رجع الإمام الهادى الذى كان ملثماً للخلف لعمل ساتر وأدخل يده فى صدره وأخرج مسدساً صوبه نحو الملازم مختار طلحة فصاح فيه المتهم عبيد كمبال بعبارات يطلب فيها إلى المرحوم الإمام الهادى أن يعدل عما يزعم القيام به من مقاومة إلا أنه لم يستجب للنداءات المتكررة من المتهم الأول فما كان منه إلا أن أطلق عليه عياراً نارياً أصابه فى فخله الأيمن مسبباً له جرحاً أدى إلى نزيف أودى بحياته بعد زمن قصير من الواقعة .

بعد ذلك اكتشفت قوة الشرطة أن الشخص المصاب هو الإمام الهادى فبدأ قائد القوة محاولته لإنقاذه وأمر بربط الإصابة بعمامة وتحرك مسرعاً لإحضار طبيب إلى أن وصل لموقع المجموعة الأولى وأخطر الملازم حسن أحمد

دفع الله (شاهد الاتهام الحادى عشر) وطلب منه إحضار الطبيب وبعد تحركه لحق به بعربته التى كانت تبعد حوال ٦ أميال من مكان الحادثة داخل الغابة .

انهارت المجموعة بعد إصابة الإمام الهادى وحاولت قوة الشرطة ترحيلها لمكان المجموعة الثانية، وتم ذلك بصعوبة لوعورة المنطقة ولأن قوة الشرطة عادت تحمل الأمتعة الخاصة بالأسرى بالإضافة إلى أسلحتهم والمعروضات .

قبل أن يصل الملازم مختار طلحة للكرمك قابله المتهم الثانى أحمد حسين بامسيكه متوجهاً لموقع الحادث ترافقه قوة من الشرطة، ونقل إليه ضابط الشرطة ما حدث وتحرك نحو الكرمك لإحضار الطبيب بينما توجه أحمد حسين بامسيكه المتهم الثانى لموقع الأحداث .

فى تلك الأثناء كان شاهد الاتهام الحادى عشر حسن أحمد دفع الله قد أصدر أمراً لشاهد الاتهام الثانى عشر للتوجه نحو الدمازين والاتصال بالكبانية العامة للبلد بالقيادة العامة وإخبارها .

وصل المتهم الثانى أحمد حسين بامسيكه ووجد الإمام الهادى قد فارق الحياة، وكان سيف الدين الناجى جالساً على الأرض واضعاً رأس الإمام على حجره فى حراسة قوة الشرطة فطلب منه الوقوف فرفض سيف الدين الناجى وأخذ يكبر: الله أكبر والله الحمد عدة مرات فما كان من المتهم الثانى أحمد حسين بامسيكه إلا أن أطلق عليه من مسدسه ثلاث طلقات نارية فى صدره وأمر شاهد الاتهام الرابع الأمين مصطفى لإدريس أن يصرعه بطلقة إلا أن الأخير رفض الانصياع للأمر فأمر المتهم الثالث وداعة على سيد أحمد فاستجاب المتهم الثالث للأمر وأطلق طلقة نارية واحدة من بندقيته على صدر سيف الدين الناجى حيث تولى نتيجة هذه الطلقات النارية التى أصيب بها فى صدره .

وفى حوالى الساعة الحادية عشرة والنصف مساء حضرت عربية جيش ديمر كبيرة وصلت إلى موقع الحادث بعد أن تم قطع الأشجار حيث تم تسليمهم

جثة الإمام الهادى وسيف الدين الناجى وسلم محمد أحمد مصطفى حياً . وهذه القوة من الجيش هى القوة التابعة للاستخبارات العسكرية والتي كانت ترابط خارج الكرمك بقيادة الملازم حسن أحمد دفع الله شاهد الاتهام الحادى عشر .

فى تلك الأثناء كان شاهد الاتهام الثانى عشر صديق أبو الحسن قد وصل للدمازين وأجرى محادثة تليفونية بالخرطوم ونقل إليهم وفاة الإمام الهادى وأسر من معه وأبلغه مجلس قيادة الثورة متمثلاً فى رئيسه السابق بأن يخطر شاهد الاتهام الحادى عشر حسن أحمد دفع الله بقتل بقية الأسرى وعندما علم الرئيس السابق برتبة محدثه طلب ضابط أعلى منه ومن ثم أحييت المحادثة لحامية الدمازين فتلقاها الملازم تيراب الغالى نوار المتهم الخامس وقائد ثانى حامية الدمازين وبلوره أحضر المتهم الرابع عبد الله إبراهيم حبيب الله قائد حامية الدمازين ودارت محادثة بينه وبين رئيس مجلس قيادة الثورة السابق فور انتهائها طلب المتهم الرابع من المتهم الخامس أن يصطحب معه شاهد الاتهام الثانى عشر ويتوجهوا بقوة عسكرية ومعهم معدات الدفن لدفن القتلى وعقب تحركهم وصل الملازم حسن أحمد دفع الله شاهد الاتهام الحادى عشر لحامية الدمازين وأبلغه المتهم الرابع بفحوى المحادثة مع الرئيس السابق جعفر نميرى وطلب منه إثناء الرئيس السابق عن قتل بقية الأسرى ، وفى تلك اللحظة اتصل الرئيس السابق لمتابعة الأحداث فتحدث معه شاهد الاتهام الحادى عشر وطلب إليه الإبقاء على حياة الأسرى فاستجاب لطلبه .

وفى هذه الأثناء تحرك المتهم الخامس من الدمازين على رأس قوة يرافقه شاهد الاتهام الثانى عشر ومعهم معدات الدفن لدفن الموقى إلى أن وصل لمنطقة باو التى تبعد ٥٩ كم من الدمازين حيث تم حفر قبرين على بعد ١٥٠ متراً شمال شرق مفترق الطرق المؤدى إلى قادمة والطريق المؤدى إلى باو وكان البعد بين القبرين حوال ١٠ خطوات ووصلت لطريقهم عربة جيش تحمل جثة المرحومين الإمام الهادى وسيف الدين الناجى ومحمد أحمد مصطفى وكان حياً و تم اختيار اثنين من الجنود أحدهما من الإقليم الشمالى والآخر من الإقليم الجنوبى وأمر المتهم الخامس الجندى الأول بإعدام محمد أحمد مصطفى فتردد فما

كان منه إلا أن أمر الجندي الآخر وهو من أبناء الإقليم الجنوى لإعدام محمد أحمد مصطفى وتم تنفيذ الإعدام بطلقة اخترقت الرأس من الخلف مهشمة للوجه من الأمام ثم بعد ذلك دفن كل من سيف الدين الناجي ومحمد أحمد مصطفى في قبر واحد في وضع معكوس ودفن الإمام الهادي في مقبرة وحده وبعد ذلك عاد المتهم السادس إلى الدمازين بعد أن نفذ المهمة .

أخذ بقية الأشخاص المقبوض عليهم بعربة جيش إلى الدمازين صباح اليوم الثاني للحدث وأحضرت طائفة حربية أقلتهم إلى الخرطوم بمعية شاهد الاتهام الحادي عشر حسن أحمد دفع الله .

بسم الله الرحمن الرحيم

Judicial Forms A 3 and A 4

C

FINDING

(NOTE- the finding is part of the Judgment.

(Code of C. P. Section 243.)

The Court finds that the accused (1)

(insert names)

المتهم الأول : عبيد كمال الأمين : غير مذنب تحت المادة ٢٥١ ع
لسنة ١٩٢٥ م .

المتهم الثاني : أحمد حسين بامسيكة : مذنب تحت المواد ٢٥١/٨٤
لسنة ١٩٢٥ م .

المتهم الثالث : وداعة على سيد أحمد : مذنب تحت المواد ٢٥١/٧٩ ع
لسنة ١٩٢٥ م .

المتهم الرابع : عبد الله إبراهيم حبيب الله : غير مذنب تحت المواد ٨٤ /
٢٥١ ع لسنة ١٩٢٥ م .

المتهم الخامس : تيراب الغالي نوار : مذنب تحت المواد ٨٤ / ٢٥١ ع
لسنة ١٩٢٥ م .

سيد علي محمد ديدان
رئيس المحكمة الكبرى

REASONS FOR FINDING (2)

قلم المتهمون للمحاكمة تحت طائلة المواد ٢٥١ و ٢٥١ / ٨٤
و ٧٩ / ٢٥١ من قانون العقوبات لسنة ١٩٢٥ .

وقبل الخوض في تحديد مسئولية كل منهم على حدة يتعين أن نقدم للقرار بنقطة جوهرية وأساسية لم ترد في دفعات المتهمين، ومع ذلك فإن مناقشتها يعد أمراً مهماً للتمهيد للقرار، ونعني بهذه النقطة مسألة ما إذا كان المتوفون فعلاً هم المرحوم الهادي عبدالرحمن المهدي وسيف الدين الناجي ومحمد أحمد مصطفى، وهل ما تم نبشه من قبور وما استخرج من رفات متعلقاً بهؤلاء المجنى عليهم يقيناً؟ وللتقرير في هذه النقطة يتعين أن تناقش البيانات الواردة في هذا الصدد. لقد جاء في أقوال شاهد الاتهام الأول أن المرحوم الهادي عبدالرحمن قد غادر الجزيرة أبا قبل يوم الثلاثاء الذي عقب قصف الجزيرة أبا وقد أكد مرافقة المرحومين سيف الدين الناجي ومحمد أحمد مصطفى له بالإضافة إلى كل الأسرى الذين تم القبض عليهم في موقع الحادث، وقد أكد شاهد الاتهام الثاني الشيخ محمد محمد صادق الكاروري أنه رافق الإمام الهادي عبدالرحمن والمرحومين سيف الدين الناجي ومحمد أحمد مصطفى وبقية المقبوض عليهم من الجزيرة أبا في نفس التاريخ الذي حدده شاهد الاتهام الأول، وأكد هذا الشاهد أنهم ذهبوا جميعاً صوب الحلود الأنثوية للانضمام لمعسكر المعارضة هناك، وأكد هذا الشاهد أن الأهالي بقرية أونسه قد تعرضوا لهم وأنهم انقسموا إلى مجموعتين مجموعة تضم الإمام الهادي عبدالرحمن المهدي وابنه الفاضل الهادي عبدالرحمن والمرحوم سيف الدين الناجي ومحمد أحمد مصطفى وعمر مصطفى ومجموعة ثانية فيها شاهد الاتهام الثاني محمد صادق الكاروري وعباس أحمد عمر وعز الدين الشيخ وعبد المطلب بابكر، المجموعة الأولى بقيادة الإمام الهادي عبدالرحمن المهدي تحركت لداخل الغابة وبقية المجموعة الثانية لشغل الأهالي الذين تحرشوا بهم ابتداءً. وفي أثناء بقاء المجموعة الثانية مع الأهالي بجوار قرية أونسه وصلت فرقة من الشرطة بقيادة الملازم مختار طلحة وقامت بأسر المجموعة الثانية وتركوا عليهم حراسة ثم توجهوا راجلين إلى داخل الغابة، وبعد مضي زمن قليل من تحرك رجال الشرطة إلى داخل الغابة سمعت المجموعة الثانية صوت طلق نارى، وبعد قليل أحضر لهم رجال الشرطة الفاضل الهادي المهدي وعمر مصطفى وعند استفسار المجموعة الثانية لمن انضم إليهم من الأسرى أفادوهم بأن الإمام الهادي قد أصيب بمقنوف نارى. وقد أكد شهود

الالتهام الخامس أحمد سكاك قطية والرابع الأمين مصطفى إدريس أن كلاً من الفاضل الهادى المهدي وسيف الدين الناجي أكدوا أن المصاب هو الإمام الهادى المهدي . وقد أيد هذه الروايات شهود الالتهام الثامن عثمان عبد المجيد والعشرون حسن الحاج فضل الله ، وبما أن سيف الدين الناجي ومحمد أحمد مصطفى قد قتلوا والفاضل الهادى المهدي وعمر مصطفى قد توفيا فإن البينة المنقولة عنهما بالتعرف على الإمام الهادى المهدي وهو شخصية مرموقة آنذاك تعتبر بينة مقبولة في قانون الإثبات لتأكيد وفاة الإمام . وكذلك فإن الرواية النقلية التي ذكرها شاهد الالتهام الثاني محمد محمد صادق الكاروري على لسان الفاضل الهادى عبد الرحمن وعمر مصطفى تكفي لإثبات أن الشخص المصاب هو الإمام الهادى المهدي . فضلاً عن ذلك فإن البينة وردت متواترة ومتماسكة بأن المرحوم الهادى عبد الرحمن بعد إصابته بالطلق النارى توفى في مسرح الحادث بعد زمن وجيز متأثراً بالنزيف الناجم عن الجرح . وقد أكد شهود العيان حضور المتهم أحمد حسين بامسيكة إلى مسرح الحادث وأكلوا واقعة ضربه للمرحوم سيف الدين الناجي بثلاث رصاصات من مسدس كان يحمله عندما كان الأخير يجلس بجوار جثمان الإمام الهادى المهدي . كما سنفصل فيما بعد عند التعرض لمسئولية كل منهم على حدة . بقى أفراد الشرطة في حراسة الجثتين والشخص الحى وهو محمد أحمد مصطفى حتى أتى أفراد القوات المسلحة ليلاً واستلموا الجثث والشخص الحى بقيادة شاهد الالتهام الثالث عشر الرفاعي عمر . وقد أكد هذا الشاهد أن التعليمات التي صدرت له هي أن يأخذ الجثتين والأسير إلى الدمازين وفي طريقه إلى الدمازين التقى بالملازم تيراب الغالى بمنطقة باو الذى أكد له أن التعليمات الواردة من الخرطوم تقضى بقتل الأسير ودفن الجثث . وأكد هذا الشاهد وشاهد الالتهام الثاني عشر صديق أبو الحسن أن المرحوم محمد أحمد مصطفى قد أعدم رمياً بالرصاص وتم حفر مقبرتين ودفن الإمام الهادى المهدي في إحداها بالعنقريب الذى حمل عليه ، وتم دفن الجثتين الأخرين في المقبرة الأخرى . وقد أكد شهود الالتهام مكان دفن الإمام الهادى ومكان دفن المرحومين الآخرين قبل النبش . وقد أكد المتحرى شاهد الالتهام

الثالث ذلك وأكد حضوره للنش بواسطة الطبيب الشرعى شاهد الاتهام الحادى والعشرين . وبعد نبش الجثث الذى تم باستخدام لودر لتراكم الأتربة ، اتضح أن القبور كانت بنفس الوضع الذى حدده شهود الاتهام . وثبت كذلك أن الإصابات التى لحقت بأجساد المجنى عليهم متطابقة على النحو الذى ذكره شهود الاتهام قبل النش فى نفس المواقع بالتحديد . وقد أكد شاهد الاتهام الحادى والعشرون (الطبيب الشرعى) ذلك وأكد أن الهياكل لآدميين . وقدمت فى هذا الصدد مستندات الاتهام الخامس عشر والسادس عشر . فضلاً عن المستندات (١٧) وهو عبارة عن شريط فيديو استغنت المحكمة عن مشاهدته .

إن تسلسل البيانات فى هذه المسألة وردت متواترة بدرجة لا تحتمل أى شك أو مظنة وهى تقطع ب وفاة الإمام الهادى عبدالرحمن المهدي والمرحومين سيف الدين الناجى ومحمد أحمد مصطفى . وإذا جاز لنا أن نعلق على تلك الحوادث فهى بلا شك صورة مثلى للفوضى وغية حكم القانون وخرق صريح لمبادئ حقوق الإنسان وحق الفرد فى المثل أمام محاكمة عادلة مختصة . وأن إفلات بقية الأسرى من القتل ونقلهم من الدمازين إلى الخرطوم بالطائرة كان من قبل العناية الإلهية ومحض مصادفة حيث أنهم لم يكونوا فى العربة التى حملت الجثث والأسير محمد أحمد مصطفى ، وأن سلوك بعض الأفراد المسؤولين عن هذا الحادث يعد إدانة للنظام السابق حيث خرج عن عباءته عدد من الدكتاتوريين الصغار نصبوا من أنفسهم قضاة وجلادين ونفلوا حكم الإعدام دون تردد أو رحمة ، ولم تتمكن الشرطة من مجرد فتح البلاغ للسرية التى أحيطت بها العملية حتى إمطة اللثام عنها بواسطة لجنة التحقيق . ونود أن نختم هذه المقدمة بأن الاتهام والدفاع كانوا خير عون للمحكمة ، وتشيد المحكمة بجهودهم وصبرهم فى التعامل مع هذه القضية والتى جمعت أشتات بياناتها بمجهود ومشقة بعد مضى أكثر من سبعة عشر عاماً من وقوعها وشاءت العناية الإلهية أن تبقى بياناتها حاضرة بدرجة مذهلة .

كما سبق أن أشرنا فقد قدم المتهمون الخمسة للمحاكمة تحت المواد ٢٥١ ، و ٢٥١/٨٤ و ٢٥١/٧٩ من قانون عقوبات السودان لسنة ١٩٢٥م ، وقد

فصلت التهم في مواجهتهم وفقاً للفصل الثامن عشر من قانون الإجراءات الجنائية لسنة ١٩٨٣ م. وللوصول إلى قرار عادل ودقيق في إجراءات هذه القضية يتعين أن تناقش المحكمة مسئولية كل منهم على حدة وذلك تأسيساً على البيانات التي وردت في مواجهته حسب ترتيب المتهمين، وقبل الخوض في مناقشة البيانات يتعين الإشارة إلى بعض الوقائع التي اعترت سير الإجراءات .

وأولى هذه الوقائع هي : أن البلاغ الحالي قد أقيم ضد المتهمين بتاريخ ١٦/٤/١٩٨٧ م بواسطة لجنة التحقيق حول ظروف وملابسات مقتل الإمام الهادي المهدي وآخرين المفوضة من قبل النائب العام ، وقد تم فتح البلاغ في مواجهة سبعة من المتهمين إلا أن جهات الضبط القضائي لم تتمكن من إحضار أحد هؤلاء المتهمين وهو المتهم جعفر محمد نمري رئيس الجمهورية السابق وقد قامت المحكمة بفصل إجراءات محاكمته .

وثانية هذه المسائل : هي أن المتهم مختار طلحة قد أطلق سراحه إعمالاً لنفس المادة (١٦٥) من قانون الإجراءات الجنائية لسنة ١٩٨٣ م لأن المحكمة لم تروجهاً لتوجيه التهمة الجنائية ضده . وكذلك يتعين التنويه إلى أن إجراءات سماع هذه القضية قد اعترها الكثير من العسر والمشقة في إحضار الشهود . ويعزى ذلك لتفرقهم في أنحاء السودان المختلفة وخارج السودان وذلك لطول المسافة بين وقوع الأحداث وبداية التحقيق فيها .

المتهم الأول : عبيد كمبال الأمين :

لتحديد موقف هذا المتهم يتعين أن تستوفى المحكمة عناصر المادة ٢٤٨ ، من قانون عقوبات السودان ، والأسئلة المطروحة كالتالي :

أولاً : هل قام المتهم بإطلاق عيار نارى على الفخذ الأيمن للمرحوم الهادي عبد الرحمن المهدي ؟ الإجابة نعم . لقد أقر المتهم بإطلاقه للعيار الناري الذي أصاب المرحوم في فخذ الأيمن أعلى الركبة وفضلاً عن إقراره فقد أكد هذه الوقائع شهود الاتهام الخامس أحمد سكاك قطية والثامن عثمان عبد المجيد . وقد جاء في أقوال شاهد الاتهام الخامس أنه بينما كان يقوم بتفتيش أحد المقبوض

عليهم وهر بالتحديد الفاضل الهادى عبد الرحمن بدأ الأخير فى مقاومة إجراءات التفتيش وتدخل لحظتها المتهم السابق - مختار طلحة وكان يحمل مدفع استرلنق وفى الحال تخلى المدعو الفاضل الهادى عن مقاومته لشاهد الاتهام الخامس وبدأ فى منازعة مختار طلحة فى المدفع الذى كان يحمله وأثناء هذا الشد والجذب ذكر شاهد الاتهام الخامس أنه سمع صوت طلق نارى بعد محاولات تنبيه من أحد أفراد قوة الشرطة ، وعندما اتجه ناحية صوت الطلق النارى شاهد الإمام الهادى يسقط أرضاً ، وبالسؤال عما حدث أفادهم المتهم عبيد كمال الأمين بأنه هو الذى أطلق العيار النارى وقد أيد هذه الواقعة المتهم السابق مختار طلحة على صفحة ٣٤٥ من محضر المحاكمة . أما شاهد الاتهام الثامن فقد أكد رؤيته لواقعة الضرب وذلك على صفحة ١٧٥ من محضر المحاكمة . وعليه فإننا نخلص إلى أن المتهم الأول هو الذى أطلق العيار النارى الذى أصاب فخذ المرحوم الهادى المهدى .

ثانياً : هل سببت الإصابة وفاة المرحوم ؟ الإجابة نعم . لقد أكد شهود الاتهام الحاضرون فى مسرح الحادث أن الجنى عليه وبمجرد أن أصابه الطلق النارى سقط أرضاً وبدأ ينزف الأمر الذى دفع بعضهم إلى محاولة ربط الجرح بالعمامة ، وكذلك فإن ضابط الشرطة حاول الاتصال بمدينة الكرمك لإسعافه والثابت من بيانات شهود العيان أن الجنى عليه توفى بعد وقت وجيز من إصابته بالطلق النارى . وقد جاء فى تقرير الطبيب الشرعى أن الإصابة التى أصيب بها الإمام الهادى هى التى سببت الوفاة ، انظر فى ذلك مستند الاتهام الثالث . صحيح أن مسألة تحديد سبب الوفاة بعد مرور هذه الفترة الطويلة ودون الكشف على الجثة فى وقت الحادث يعد أمراً شائكاً للغاية ، إلا أن المسألة فى رمتها أمر تقرر فيه المحكمة ، والواضح من البيانات المنقولة من مسرح الحادث أن المرحوم بمجرد إصابته بدأ فى النزف حتى توفى ، وقد ألقى الطبيب الشرعى شاهد الاتهام الحادى والعشرون الضوء على أسباب تقريره الطبى على صفحة ٣١٧ من محضر المحكمة حيث ذكر (أن القاعدة هى أنه إذا وجد ضرر كلى فى عظمة وهناك ما يشير إلى حيويته مع عدم وجود ضرر فى أى من العظام

الأخرى يستطيع الطبيب أن يربط بين الضرر وسبب الوفاة وخاصة إذا كان الضرر ذا حيوية بالنسبة للإصابة). في تقدير المحكمة أن هذا التسبب مقنع بجانب ظروف الوفاة التي أشرنا إليها ومن واقع إفادات شهود الاتهام. وعليه تقرر المحكمة بأن الوفاة نتجت عن الإصابة التي ألحقها المتهم بالمرحوم.

ثالثاً: هل كان المتهم يقصد تسبب وفاة المرحوم أو كان يعلم بأن موته سيكون نتيجة راجحة وليس فقط نتيجة محتملة لفعله؟

في تقدير المحكمة أن مسألة القصد أمر لا يمكن الوقوف عليه بغير استجلاء الظروف والملابسات التي صاحبت الحادث، والواضح من البيئة أن المتهم بعد أن حذر المرحوم بعبارات (يا زول هوى) أطلق عياره الناري الذي أصاب فخذ المرحوم الأيمن، وإذا وضعنا في الاعتبار بأن المتهم شرطى نظامى يفترض فيه أنه ماهر في التصويب، فإن إطلاقه لهذا العيار وفي الفخذ ينتفى معه عنصر قصد تسبب الموت وينتفى معه العلم بأن الموت سيكون النتيجة الراجحة للفعل وذلك لأن الإصابة لم تستهدف جزءاً حيوياً من الجسم الإنسانى. حيث أشار شاهد الاتهام الحادى والعشرون - الطبيب الشرعى - بأن الأجزاء الحيوية بالجسم الإنسانى هى الصدر والرأس (انظر أقواله على صحيفة ٣١٧ من المحضر) وفضلاً عن ذلك فإن ما استقر عليه فقه القضاء السودانى وفي قضية حكومة السودان ضد كمال الجاك المنشورة بالمجلة القضائية ١٩٦٥م على صحيفة ٦٥ - استقر الفقه بأن الأجزاء الحيوية فى الجسم الإنسانى هى الرأس والصدر والبطن، وبما أن الإصابة الحالية استهدفت فخذ المجنى عليه فإن النتيجة التى حدثت هى نتيجة محتملة وليست نتيجة راجحة لأن المجنى عليه إذا لم يمت فإن هذا سوف لن يثير دهشة الرجل العادى (انظر كذلك حكومة السودان ضد سبت الجاك دينق المجلة ١٩٧٦م صفحة ٧٢٢) وعليه تقرر المحكمة بأن عناصر المادة ٢٤٨ من قانون العقوبات لسنة ١٩٢٥م منطبقة بصورة مبدئية فى حدود المادة ٢٥٣ من قانون عقوبات السودان لسنة ١٩٢٥م. والآن توجب على المحكمة فحص دفع المتهم وسنبداً بأسباب للإباحة بحسب ما استقر عليه فقه القضاء السودانى.

لقد نصت المادة ٥٥٠ عقوبات لسنة ١٩٢٥م بأنه لا جريمة من فعل وقع عند استعمال حق الدفاع الشرعى استعمالاً مشروعاً وقد خولت المادة ٥٦ من قانون عقوبات السودان لسنة ١٩٢٥م للأشخاص الحق في الدفاع عن أنفسهم وعن غيرهم وعن أموالهم بشروط خاصة . أما عن الحق في الدفاع الذى يسبب الموت فقد أورده المادة ٦١ - المشار إليها في القانون - في أحوال محددة وردت على سبيل الحصر . وما يعنينا في هذه القضية هو الفقرة (أ) من المادة ٦١ المشار إليها حيث نصت على الآتى (مع مراعاة القيود المنصوص عليها في المادتين ٥٨ ، و ٥٩ لا يمتد حق الدفاع الشرعى عن الجسم إلى تعمد تسبب الموت إلا إذا كان الفعل المراد دفعه من الأفعال الآتية :

(أ) (اعتداء يخشى أن يحدث منه الموت أو الأذى الجسيم إذا قامت هذه الخشية على أسباب معقولة) .

إلى آخر النص . والسؤال المطروح هو : هل نشأ للمتهم الأول الحق في الدفاع الشرعى بالقدر الذى يبرر تسبب الموت ؟

أعتقد أن الإجابة يجب أن تكون بالإيجاب ، فقد أكد شاهد الاتهام الخامس أن المجنى عليه لم يكن يحمل سلاحاً قبل الواقعة . وبعد أن تم الشجار حول المدفع الذى يحمله مختار طلحة وسماعه للتنبية وصوت العيار النارى شاهد مسدساً في يد المجنى عليه ، وهذا يؤكد أن المرحوم قد شهر مسدسه منتهزاً فرصة العراك الذى دار بين ابنه والمتهم السابق . مختار طلحة وشاهد الاتهام الثامن عثمان عبدالمجيد أكد رؤيته للمجنى عليه عندما أخرج مسدسه وشهره تجاه الضابط مختار طلحة وأكد الشاهد أن المتهم الأول نبه المجنى عليه وحذره عدة مرات ولما لم يستجب أطلق عليه العيار النارى موضوع الاتهام في رجله . إن توجيه سلاح نارى إلى أى شخص ينشئ تخوفاً معقولاً من حدوث الموت أو الأذى الجسيم على أقل تقدير ، وبالتالي فإننا يمكن أن نقول وبكل اطمئنان بأنه قد نشأ حق للدفاع الشرعى عن الغير وربما النفس بالنسبة للمتهم الأول ، وأن إطلاقه للنار تجاه المجنى عليه أمر يبرره القانون سواء كان ذلك دفاعاً عن رئيسه

الأعلى أو كان دفاعاً عن نفسه لأنه يتصور ألا يقتصر إطلاق النار على فرد واحد من القوة . ونعتقد أن المتهم لم يتجاوز حقه في الدفاع الشرعى حيث استخدم عياراً نارياً واحداً ووجهه في موضع لا يرجح معه حدوث الوفاة بل فإن مقدار ما بذل من نشاط لرد هذا الاعتداء يعد نشاطاً معقولاً تجاه اعتداء بسلاح نارى أقل ما ينتج عنه هو الأذى الجسيم إن لم يكن الموت .

كذلك فإنه لم يكن متاحاً للمتهم اللجوء للسلطات لأنه وزملاءه الآخرين هم السلطة المنوط بها رد الاعتداء عن الآخرين ووجدوا أنفسهم في موقع المدافع .

وعليه وبما أننا خلصنا إلى أن حق الدفاع قد نشأ للمتهم الأول واستخدمه وفقاً للضوابط المنصوص عليها في المادة (٦١) من قانون العقوبات دون إخلال بالقيود المنصوص عليها في المواد ٥٧ و ٥٨ من ذات القانون فإننا نقرر تبرئة ساحة المتهم من التهمة المنسوبة إليه تحت المادة ٢٥١ من قانون عقوبات السودان .

المتهم الثانى : أحمد حسين بامسيكة :

والأسئلة المطروحة بشأنه كما لى :

أولاً : هل قام المتهم بإطلاق ثلاثة أعيرة نارية بصدر المرحوم سيف الدين الناجى ؟ الإجابة نعم . فإنه رغم إنكار هذا المتهم لواقعة توجيهه للطلقات الثلاث المشار إليها وزعمه أنه أطلق عياراً نارياً واحداً تجاه الكتف وقد وردت هذه الإفادة باعترافه القضائى ص ٣٦٥ عند استجوابه إلا أن هذه الأقوال تخالف الواقع ، وذلك لأنه بعد أن نبش الجثث لم توجد إصابة بكتف المرحوم سيف الدين الناجى والذى أمكن التعرف عليه عن طريق بقية متعلقاته التى دفنت معه فضلاً عن طبيعة الإصابات التى وصفها شهود العيان والتقرير الطبى مستند الاتهام (٦) . ليس هذا فحسب بل اتضح بعد إجراء النبش أن هناك طلقاً نارياً لمسدس عيار (٩) ملم مستقراً بالصدر وتؤكد البيانات بما لا يدع مجالاً للشك أن جميع أفراد قوة الشرطة كانوا يحملون بنادق ماركة (٤) وأن

الشخص الوحيد الذى كان يحمل مسدساً حكومياً هو المتهم وكأن هذه الطلقة بقيت لمدة ١٧ عاماً على هيكل المرحوم لتشهد على المتهم أحمد حسين بامسيكة . وقد أكد شهود العيان ومنهم شاهد الاتهام الرابع الأمين مصطفى إدريس واقعة إطلاق المتهم أحمد حسين بامسيكة للطلقات الثلاث إلى صدر المرحوم وأكد أن المتهم استخدم مسدساً فى إحداث هذه الإصابات . وأكد هذه الرواية شاهد الاتهام الخامس أحمد سكاك قطية والشاهد الثامن عثمان عبد المجيد وشاهد الاتهام العشرون حسن الحاج فضل الله . وبذلك نخلص إلى أن المتهم أحمد حسين بامسيكة أطلق ثلاث طلقات من مسدسه تجاه المرحوم سيف الدين الناجى .

ثانياً : هل سببت الإصابة وفاة المرحوم ؟ الإجابة نعم . لقد وجه المتهم طلقاته الثلاث إلى منطقة الصدر وهى منطقة حيوية من الجسم الإنسانى بحسب ما استقر عليه فقه القضاء السودانى فى السابقة التى أشرنا إليها وهى سابقة حكومة السودان ضد كمال الجاك . وأوضح من التقرير مستند الاتهام السادس أن هناك أربعة آثار لطلقات اخترقت عظام الصدر وسنشير إلى الطلق الرابع عند مناقشتنا لمسئولية المتهم الثالث .

ولا شك أن توجيه طلقات نارية إلى منطقة الصدر ومن مسافة قريبة لابد أن تؤدى إلى إحداث الموت سواء عن طريق تمزيق أجزاء حيوية من منطقة الصدر أو إحداث نزيف يؤدى إلى الوفاة . وقد ثبت من أقوال شهود العيان أن المرحوم كان بحالة جيدة وعادية إلى أن أطلقت عليه هذه الأعيرة النارية التى توفى على أثرها فى الحال ، وعليه فإن المحكمة تقرر بأن الإصابات التى أحدثها المتهم الثانى أحمد حسين بامسيكة بالتضافر مع العيار الرابع أدت إلى وفاة المرحوم سيف الدين الناجى .

ثالثاً : هل كان المتهم يقصد تسبب وفاة المرحوم أو كان يعلم بأن موته سيكون نتيجة راجحة وليس فقط نتيجة محتملة لفعله ؟ الإجابة نعم . لقد تخير المتهم منطقة الصدر وهى منطقة حيوية كما سبق أن أشرنا واستخدم المتهم

لفعله سلاحاً نارياً لا يحتاج إلى شرح لخطورته وأطلق ثلاثة أعيرة نارية إلى منطقة الصدر وهذا يكشف بجلاء عن قصد المتهم في إحداث الموت أو على الأقل فإنه كان يعلم أن الموت سيكون نتيجة راجحة لفعله ذلك ، وذلك لأن إصابة شخص بثلاثة أعيرة نارية في منطقة الصدر وعن قرب إذا لم تؤد إلى الوفاة فإن هذا سيثير دهشة الرجل العادى ولا شك في ذلك . عليه تقرر المحكمة بأن سلوك المتهم لا يستشف منه سوى عنصر قصد إحداث الموت أو العلم بأن النتيجة التى حدثت هى الراجحة وليست فقط نتيجة محتملة .

يتضح مما تقدم أن عنصر المادة ٢٤٨ متوافر في حقه وعليه ينبغي على المحكمة أن تفحص دفوع المتهم المقدمة وتستبدأ بأسباب الإباحة . والسؤال الذى يطرح نفسه هو : هل نشأ للمتهم حق في الدفاع الشرعى ؟ نجب على هذا التساؤل بالنفى ، لقد حاول المتهم أن يثبت بأن هنالك اعتداء عليه من قبل المرحوم حيث ذكر بأنه كان متهيجاً وهاجمه بخنجر إلا أن هذه الأقوال تدحضها أقوال شهود العيان الذين أكدوا أن المجنى عليه رغم أنه كان متهيجاً إلا أن هياجه كان يقتصر على التكبير ولم يهاجم أحد وكان جالساً على الأرض أعزل ولا يحمل أى سلاح وقد قال شاهد الاتهام الرابع أنه فتش المرحوم سيف الدين الناجى شخصياً قبل الواقعة وأمر زميله عمر بخنجره بتجريدته من خنجر كان يلبسه بوسطه وقد تم ذلك قبل وصول المتهم . وعليه فإن ادعاءات المتهم بأن المرحوم قد هاجمه بخنجر هى محض افتراءات لا يوجد أى دليل يدعمها بل إن كل الأدلة تؤكد عكس ذلك . وعليه ففى تقدير المحكمة أنه لم ينشأ حق الدفاع الشرعى لأنه لا يوجد أى اعتداء من قبل المرحوم يؤدى إلى الخشية من وقوع الموت أو الأذى طبقاً لنص المادة (٦١) من قانون العقوبات لسنة ١٩٢٥م ، مع الوضع في الاعتبار أن المجنى عليه كان في أسر الشرطة وتحت حمايتها قانوناً .

إذن . هل يستفيد المتهم بأى دفع من الدفوع الواردة في المادة ٢٤٩ ، من قانون عقوبات السودان لسنة ١٩٢٥م ؟

الإجابة بالنفى . فى تقديرنا أنه لا يوجد أى استثناء من استثناءات المادة ٢٤٩ من قانون العقوبات . وجدير بالمناقشة فى هذه القضية حيث لم تورد البيانات أية حالة من الحالات الست الواردة فى النص . لقد حاول الدفاع أن يثير حالة الاضطراب العقلى بالنسبة للمتهم إلا أنه فشل فى تقديم أية بينة تؤيد هذا الدفع ولذا فهو دفع مرفوض من قبل المحكمة . بالنسبة للدفع الأخرى فإن محامى المتهم متمسك بأن المتهم ينتمى إلى قوة نظامية وأن قانون الإعفاءات لسنة ١٩٧٧م ينطبق عليه باعتباره كان يدافع عن الثورة واستشهد محامى المتهم بالمادة (٣٣) من قانون الحكم الشعبى المحلى والذى تنص على الآتى : (يشكل الضباط الإداريون العاملون بوزارة الحكومة المحلية بما فى ذلك المنتدبون منها للعمل خارج وحداتها الميدانية والمهنية جهازاً نظامياً مركزياً منضبطاً يعمل من أجل تنمية البلاد وتحديثها وخدمة جماهيرها) . فى تقديرنا أن التعريف الذى يعتمد عليه ممثل الدفاع لا يعنى أن المتهم ينتمى للقوات النظامية لأن القانون الذى استشهد به نفسه لا يشير إلى أن فئة الضباط الإداريين هم قوة نظامية بل عرفهم قانونهم بأنهم جهاز نظامى ومنضبط، وهذا الوصف قد ينطبق على كثير من الطوائف المنظمة الأخرى كفرق الكشافة مثلاً إلا أن هذا لا يعنى بالضرورة أنهم قوة نظامية لأن القوات النظامية فى السودان معروفة لدرجة العلم القضائى وتشمل القوات المسلحة وقوات الشرطة والسجون والمطافئ وحرس الصيد دون غيرهم . وبالتالى فإن الإعفاءات لسنة ١٩٧٧م لا تنطبق على المتهم وبفرض أن المتهم ينتمى إلى قوة نظامية فإن الفعل الذى أتاها لا يدخل فى معنى الحماية الواردة فى القانون لأن تلك الحماية قد توفرت بسيطرة رجال الشرطة على المرحوم وزملائه، وأن ما قام به المتهم هو مجرد اعتداء إذ أخذته العزة بالإثم وقام بقتل المرحوم الذى كان أعزّل وأسيراً لا حول له ولا قوة .

مخلص مما تقدم بأن ما أتاها المتهم الثانى محمد حسين بامسيكة يوقعه تحت طائلة المادة ٢٥١ من قانون عقوبات السودان اسنة ١٩٢٥ .

أما بالنسبة للتهمة الموجهة له تحت المادة ٢٥١/٨٤ من قانون عقوبات السودان . فإن الترحيض يتوافر بإتيان أحد الأفعال المنصوص عليها فى المادة ٨٢ هـ :

- ١٢٧ -

(أ) أن يغرى غيره على إتيان ذلك الشيء .

أو (ب) يشترك مع شخص آخر أو مع أشخاص آخرين في اتفاق لارتكاب ذلك الشيء .

أو (ج) يساعد قصداً على ارتكاب ذلك الشيء أو يسهل ارتكابه قصداً وذلك بفعل أو امتناع مخالف للقانون .

فهل حرص المتهم الثالث وداعة على سيد أحمد على إطلاق النار على المرحوم ؟ الإجابة نعم . فقد أكد شاهد الاتهام الرابع الأمين مصطفى لإدريس بأن المتهم الثانى أحمد حسين قد أمره بضرب المرحوم للإجهاز عليه بعد أن وجه له الطلقات الثلاث الأولى إلا أن الأخير رفض ذلك ، ثم وجه نفس التعليمات للمتهم الثالث وداعة على سيد أحمد الذى امتثل لهذا الطلب وأطلق عياراً نارياً واحداً من بندقيته التى كان يحملها على صدر المرحوم ، وقد أكد هذه الرواية شاهد الاتهام العشرون حسن الحاج فضل الله على صحيفة ٢٩٣ من محضر المحكمة . إن إعطاء مثل هذا الأمر لشخص على مستوى المسئولية ينطوى على عنصر الإغراء لإتيان الفعل وفقاً لأحكام المادة ٨٢ (أ) من قانون العقوبات لسنة ١٩٢٥م وبالتالى فإن المحكمة تجد المتهم مذنباً تحت المادة ٢٥١/٨٤ من قانون العقوبات .

المتهم الثالث : وداعة على سيد أحمد :

الأسئلة المطروحة فيما يتعلق بالتهمة الموجهة إليه كالاتى :

أولاً : هل أطلق المتهم عياراً نارياً من بندقيته على صدر المرحوم سيف الدين الناجى ؟ الإجابة نعم . رغم إنكار المتهم لإطلاقه للعيار النارى الذى وجه إلى صدر المرحوم سيف الدين الناجى إلا أن شهود الاتهام أكدوا عكس ذلك ، فقد أكد شاهد الاتهام الرابع أن المتهم وداعة سيد أحمد أطلق عياراً نارياً أصاب به صدر المرحوم سيف الدين الناجى ، وذلك بعد أن أمره المتهم الثانى أحمد حسين بأن يفعل ذلك ، وقد أكد هذه الرواية شاهد الاتهام العشرون

حسن الحاج فضل الله . وقد أكد الشاهدان أن الطلق الناري كان بمنطقة الصدر ، وعليه فإن البينة كافية بما لا يدع مجالاً للشك بأن المتهم وداعة على سيد أحمد أطلق عياراً نارياً في صدر المرحوم سيف الدين الناجي .

ثانياً : هل تسبب المتهم في وفاة المرحوم ؟

في تقدير المحكمة أن الإجابة يتعين أن تكون بالإيجاب . فقد ثبت أن المتهم أطلق عياراً نارياً إلى منطقة صدر المرحوم من بندقيته ماركة (٤) بعد أن أطلق عليه المتهم الثاني أحمد حسين ثلاث طلقات قبلها بقليل حيث أكد شهود الاتهام ذلك وبالوجه الذي استعرضناه من قبل وعليه فإن تضافر الإصابات الأربع قد أدت للوفاة ، وصحيح أن المحكمة لا تستطيع أن تجزم بأى إصابة كانت الوفاة إلا أنه مما لا شك فيه أن جراح الصدر التي أحدثها المتهمان هي التي أدت إلى الوفاة حسب التقرير الطبي رقم (٦) الذي سبقت الإشارة إليه ، وذلك بالاستناد على المادة ٧٩ من قانون عقوبات السودان التي وجهت بها التهمة .

ثالثاً : هل كان المتهم يقصد تسبب وفاة المرحوم أو كان يعلم بأن موته سيكون نتيجة راجحة وليس فقط نتيجة محتملة .

لناقشة هذا العنصر يتعين الاهتداء بنص المادة ٧٩ من قانون عقوبات السودان لسنة ١٩٢٥ . لقد جاءت صياغة النص كالآتي : إذا ارتكب عدة أشخاص فعلاً يعتبر جنائياً لمجرد أنه ارتكب عن علم جنائى أو بقصد جنائى ، كان كل من اشترك منهم في هذا العمل بنفس العلم أو القصد مسؤولاً عنه كما لو كان قد ارتكبه وحده بنفس العلم أو القصد .

واضح من البيانات أن المتهم الثاني أحمد حسين بعد أن وجه طلقاته الثلاثة لصدر المرحوم أمر المتهم الثالث وداعة على سيد أحمد للإجهاز عليه وقام المتهم وداعة بتنفيذ التوجيهات وأطلق عياراً نارياً إلى صدر المرحوم ومما لا شك فيه أن فعل المتهم الثاني يعد فعلاً جنائياً وارتكب عن علم جنائى وبقصد جنائى كما أسلفنا وعليه فإن اشتراك المتهم الثالث وداعة على سيد أحمد كان بنفس العلم والقصد ويمكن أن يستشف ذلك بسهولة من طبيعة السلاح المستخدم في

الحادث وموقع الإصابة في صدر المجنى عليه وقد قررت السابقة القضائية حكومة السودان ضد أبوراس تيراب وآخرين المجلة القضائية ١٩٦١ صفحة ١١٧ ما يلي :

* Whenever an act which is criminal offence only reason of its being done with a criminal knowledge or intention by several persons, each of such persons who joins in the act with such knowledge or intention is liable for the act in the same manner as if the act were done by him alone with that knowledge or intention.*

وكان المتهمون أربعة في هذه القضية ذهب منهم اثنان وافتعلا شجاراً مع المرحوم وبدآ في ضربه بالعصى التي كانا يحملانها وعلى إثر ذلك تدخل المتهمان الثالث والرابع واشتركا في الضرب حتى أحدثوا الإصابات التي أدت إلى نزيف داخلي أدى إلى الوفاة لم يكن معروفاً لدى المحاكمة أى من المتهمين هو الذى سبب الإصابات القاتلة التي رصدت بجسد المجنى عليه ومع ذلك تأيدت إدانتهم جميعاً تحت المادة ٢٥١ تأسيساً على المادة ٧٩ ، وقد أيد مولانا محمد إبراهيم النور قرار المحكمة الكبرى بالتسبيب الآتي :

* in my view, therefore, the court was quite right in finding the offence of murder under penal code section 251 for causing the death of abdu Abdel Karim by jointly beating him with heavy Ukhazezs, knowing at that time of their act that death would be the probable consequence.*

إذا نظرنا لموضوع الإصابات التي أحدثها هذا المتهم بمعية المتهم أحمد حسين نجد أن مجموعة ما أحدثاه تسبب في وفاة المرحوم دون أن تيسر للمحاكمة معرفة أى من الإصابات هي التي أودت بحياته ومع ذلك وتأسيساً على المادة ٧٩ من قانون عقوبات السودان لسنة ١٩٢٥ م ، فإن ما استخدمه المتهمون من سلاح وما اختاراه من مساحة في جسد المجنى عليه تثير القول بأن الموت كان نتيجة راجحة في علم كليهما وبالتالي فإننا نرى أن عناصر المادة ٢٤٨ منطبقاً في حق المتهم وداعة على سيد أحمد .

بالنسبة لأسباب الإباحة فمن الواضح أن الدفاع يثير دعواً بالمادة ٤٤ من قانون عقوبات السودان لسنة ١٩٢٥ على أساس أن المتهم كان ينفذ

تعليمات رئيسه الأعلى وهو ضابط الشرطة مختار طلحة للقبض على المتهمين ، كما أنه عند إتيانه للفعل كان ينفذ أمراً قضائياً صادراً له من المتهم الثانى أحمد حسين بامسيكه باعتباره قاضياً . وبالنسبة للشق الأول من القضية والمتعلق بتنفيذ تعليمات الرئيس الأعلى نعتقد أنه لا وجه لإثارته لأن الرئيس الأعلى لم يكلف المتهم بالتوجه لمكان المجموعة الأولى من المعتقلين الذين تم القبض عليهم بواسطة مواطنى قرية أونسه . وقد ذهب المتهم إلى المجموعة الثانية تطوعاً وبعد سماعه لصوت الطلقة الأولى ، وقد أكد هذه الرواية شاهد الاتهام الرابع الأمين مصطفى إدريس على صحيفة ١٦٧ من محضر المحاكمة وبالتالي يسقط هذا الشك من الادعاء . أما بالنسبة للأمر الصادر من المتهم الثانى أحمد حسين فيمكن مناقشته على ضوء المادة ٤٤ (أ) من قانون العقوبات . جاء فى هذا النص ما يلى :

(لا يعد الفعل جريمة إذا وقع من شخص ملزم قانوناً بالقيام به أو يقره القانون على فعله) فهل كان المتهم ملزماً قانوناً بتنفيذ أمر المتهم الثانى ؟ أعتقد أن الإجابة بالنفى ، لأن المتهم أحمد حسين مجرد ضابط إدارى وهو ليس رئيساً للمتهم ولو كان رئيس لجنة الأمن لا يجوز أن يتلقى منه أمراً . كذلك لا يوجد أى قانون يخول القاضى - بفرض أن أحمد حسين كان لديه سلطات قاضى - أن يأمر أى شرطى أو خلافه أن يقتل أعزل والحالة الوحيدة التى ألزم فيها القانون رجال الشرطة أو القوات المسلحة الانقياد لأمر القاضى باستخدام القوة هى حالة التجمهر غير المشروع بموجب المادة ١٠١ من قانون الإجراءات الجنائية لسنة ١٩٨٣م ويقابل المادة ٧٩ من قانون الإجراءات الجنائية لسنة ١٩٢٥ الذى كان سائداً وقت وقوع الحادث . وحتى هذه المادة لم تخول للقاضى ولا للشرطى المتلقى للأمر بتجاوز أقل قوة لازمة لتفريق التجمهر . وعليه فإذا صح أن المتهم الثانى كان يضطلع بسلطات قاضى فإن الأمر الصادر منه غير ملزم للمتهم الثالث وداعة على سيد أحمد قانوناً ، ولعل وضوح هذه المسألة بالنسبة للشخص العادى وضح جلياً لشاهد الاتهام الرابع الذى رفض الأمر صراحة واتفق مع ممثل الاتهام بأن سابقة حكومة السودان ضد اليو دينق المنشورة بمجلة

الأحكام القضائية لسنة ١٩٦١ صفحة ٣٣ تشترط فعلاً وجوب أن يكون الفعل ملزماً للمتهم قانوناً إلتئان به أو أن القانون يقره، ولم أجد في قانون الإجراءات الجنائية أو قانون الشرطة بنداً يجعل المتهم ملتزماً بأمر المتهم الثانى لتوجيه الرصاص لشخص أعزل تحت حراسة أفراد من الشرطة مدججين بالسلاح والعتاد .

في رأينا أن المادة (٤٤) لا انطباق لها فيما يتعلق بموقف المتهم وداعة على سيد أحمد . أما بالنسبة لقانون الإعفاءات لسنة ١٩٧٧ ، إذ أن النص منع إقامة الدعوى الجنائية أم المدنية أو اتخاذ أى إجراء قانونى ضد أفراد القوات النظامية من الأفعال التى ارتكبوها فى الفترة من ٢٥ مايو ١٩٦٩ حتى ٢٧/٨/١٩٧٧ ، إذا كانت هذه الأفعال قد بوشرت بغرض حماية الدستور أو القانون أو المؤسسات أو النظام القائم آنذاك أو لحماية مبادئ الثورة ومؤسساتها أو من أجل تحقيق الضبط والربط داخل القوات النظامية أو لحماية الخدمة العامة أو لأى غرض آخر متعلق بالصالح العام ، وفي رأينا أن ما قام به المتهم لم يرم إلى حماية الدستور أو القانون بل هو خرق صريح لمبادئ القانون وحقوق الإنسان ، إذ أن جميع الشرائع لا تبرر قتل الأسير الأعزل ، حتى لو قلنا أن الفعل كان لحماية النظام الذى أقامته الثورة فإن هذا لا ينطبق إذا حصل الفعل أثناء عراك أو مقاومة أو رفض الاستسلام ، إلا أن القتل بعد الاستسلام والتجريد من السلاح لا يمكن أن يكون فى معرض حماية النظام ؛ لأن هذه الحماية الجزئية قد توافرت بمجرد السيطرة على المعارضين للنظام . وإذا قلنا بغير ذلك فإن هذه دعوة صريحة ليسود قانون الغاب ومبدأ الغلبة للقوة . وواضح أن هذا الفعل لم يكن بغرض حماية المؤسسات ولا الخدمة العامة ولا الصالح العام بل كان مجرد شهوة للقتل ونيل رضى السلطة الحاكمة آنذاك وما قد يترتب على ذلك من ترقيات استثنائية .

عليه فإننا نقرر عدم استفادة المتهم من أية دفعات مثارة منه ونرى أن ما أثاره هو فعل مجرم بموجب المادة ٢٥١ من قانون العقوبات لسنة ١٩٢٥

المتهم : عبد الله إبراهيم حبيب الله :

السؤال المطروح هو هل حرض المتهم عبد الله إبراهيم حبيب الله على قتل
المرحوم محمد أحمد مصطفى ؟

تقدم لهذا السؤال بأن المتهم عبد الله إبراهيم حبيب الله كان الضابط الأعلى
لحماية الدمازين ، والاتهام الموجه له هو أنه أصدر أمراً للمتهم تيراب الغالى نوار
بإعدام الأسرى حسب إفادة بعض شهود الاتهام . ويتعين أن نستعرض أقوال
هؤلاء الشهود بشيء من التفصيل والتحصيل لأن الاتهام يعتمد على هذه الأقوال
في إبرام مسؤولية هذا المتهم عن الحادث . بالنسبة للمتهم نفسه - أى عبد الله
إبراهيم حبيب الله - أكد أنه استلم إشارة من الرئيس السابق جعفر محمد نيمرى
تليفونياً بحسن دفع الله بدفن الموقى وإعدام الأحياء من الأسرى وجاء في إفادة
المتهم أنه كان متردداً في إرسال هذه الإشارة لاعتبارات خاصة تربطه
بالأشخاص المطلوب إعدامهم ، وذكر أنه تحمل مجازفة عدم تبليغ الأمر لحسن
دفع الله ، وفي منتصف ليلة نفس اليوم وصل ملازم الاستخبارات حسن
دفع الله إلى الدمازين والتقى بالمتهم عبد الله إبراهيم حبيب الله ووضح من أقوال
المتهم أنه تناقش مع حسن أحمد دفع الله بشأن الأوامر الواردة من الخرطوم بشأن
دفن الجثث وإعدام الأسرى ، وأبدى تهرباً حيال هذا الأمر وطلب من حسن
دفع الله الاتصال بالقيادة لإقناع الرئيس بعدم قتل الأسرى ، وفي هذه الأثناء
اتصل الرئيس بهم مرة أخرى وسأل عما إذا كان الأمر قد نفذ أم لا ، ونفى له
المتهم عمل شيء وأبلغ الرئيس بأن حسن دفع الله نفسه موجود معه وطلب
الرئيس التحدث إلى حسن دفع الله وفعلاً بدأ الحديث معه وفعلاً نقل للرئيس
وجهة النظر التى تنادى بعدم قتل الأسرى إلا أنه لم يعلم ما دار بينهم من
حديث وبعد المحادثة ذكر بأنه طلب إلى حسن أحمد دفع الله ليوضح ما يحتاج
إليه وطلب منه الأخير عساكر ومعدات حفر لدفن الموقى بما فيهم الإمام
الهادى ، هذه الأقوال تعنى بأن المتهم الرابع حبيب لم يصدر أمراً مباشراً بإعدام
القتلى ، حسب أقواله بل تفيد بأن دوره اقتصر على تبليغ حسن دفع الله بأوامر
عسكرية محددة بدفن الجثث وإعدام الأسرى ولم يكتف بذلك بل طلب إلى

شاهد الاتهام الحادى عشر حسن أحمد دفع الله بأن يطلب إلى الرئيس تغيير أوامره بإعدام الأسرى ، البينات التى وردت ضد المتهم حبيب الله جاءت على لسان شهود الاتهام الحادى عشر حسن أحمد دفع الله والثانى عشر صديق أبو الحسن والتاسع عشر محمد يوسف تلب . أما فحوى إفادة الشاهد الحادى عشر حسن أحمد دفع الله فقد اقتصر على أن عبد الله ذكر له العبارة الآتية : (الجماعة زى ما عارفين قالوا للراجل امسك الزول امسك الزول وضربوه من وراء) وذكر أنه استنتج من هذه العبارة أن أحد الأسرى فر وضرب من الخلف . واعتقد أن هذه الإفادة لا تقدم شيئاً بالنسبة لقضية الاتهام حيث إنها عبارة مبهمه وغير دقيقة ولا تدل على أية واقعة محددة ولا تعنى أن هناك إقراراً بفعل معين ، هذا إضافة إلى أن الشاهد حسن أحمد دفع الله شاهد غير مأمون الجانب وقد اعترت شهادته اختلافات جوهرية فى كافة المراحل وفى نقاط يتعذر قبول السهو بشأنها ؛ وللتدليل على هذا النظر نستشهد بإفادته فى التحرى التى زعم فيها أنه لم يقابل تيراب الغالى وجماعته فى طريقه إلى الدمازين ليلة الحادث فى حين أنه أتى وأكد هذه المعلومة أمام المحكمة ، واعتقد أن شاهداً يغفل مثل هذه النقطة الجوهرية من شهادته يعد شخصاً غير مأمون الجانب وليس ذلك فحسب بل إن بينة حسن أحمد دفع الله ترقى لمستوى بينة الشريك الذى يحاول أن يزيج عبء الفعل عنه ويلقيه على عاتق غيره ، واعتقد أنه ليس من المدهش حقاً إذا كان حسن أحمد دفع الله نفسه متهماً حتى تاريخ نهاية هذه المحاكمة ، لأن هنالك كثيراً من الوقائع تلقى ظلالاً كثيفة من الشك حول دوره الفاعل حيال ما جرى من أحداث . واعتقد أن بينة حسن أحمد دفع الله يمكن القدح فيها بما يضعفها للغاية إذا دققنا فى موقفه حيال الأحداث التى جرت وما أظهره من جزع وخور تنذر به حتى أفراد الشرطة ، واعتقد أن مثل هذا الشاهد سوف لن يكون فى وضع يمكنه من تحمل الشهادة حيال هذه الأمور الجسام ؛ ولذا فإننا نطرح شهادته جانباً فيما يتعلق بموقف هذا المتهم . أما شاهد الاتهام الثانى عشر صديق أبو الحسن فلم يورد اسمه أية بينة تربط هذا المتهم بالواقعة وكل ما ورد فى إفادته أن المتهم أصغر أمراً لتيراب الغالى بأخذ معدات

الدفن وهذا ما أكدته المتهم تيراب الغالى نفسه أمام المحكمة ، هذا إضافة إلى أن شاهد الاتهام الثانى عشر ذكر أنه تلقى تعليمات من الخرطوم بإعدام الأسرى ونقلها بنفسه لحسن أحمد دفع الله عند ملاقاته له فى رحلة العكسية من الدمازين إلى الكرمك . أما البينة المباشرة والوحيدة التى وردت ضد عبد الله إبراهيم حبيب الله فهى أقوال شاهد الاتهام التاسع عشر محمد يوسف تلب والذى ذكر صراحة بأن المتهم عبد الله إبراهيم حبيب الله باعتباره رئيسه الأعلى - كلفه بالتوجه إلى الكرمك لقيادة حمايتها وأمره بأن يعرج على تيراب الذى تحرك قبله لتبليغه بأن ينفذ أوامر الخرطوم التى فهم أنها تتعلق بإعدام الأسرى وأنه نقل هذه المعلومات لتيراب الذى التقاه فى الطريق إلى الكرمك وذكر أن تيراب طلب إليه تعيين اثنين من العسكريين لتنفيذ الأمر، وفعل . وفى تقديرى أن أقوال هذا الشاهد يمكن دحضها لسببين الأول أن هذا الشاهد كذب على المحكمة بأنه لم يكن هناك اتصال بينه والشاهد الحادى عشر حسن أحمد دفع الله بسجن كوبر بالخرطوم بحرى ، وهذه الواقعة المنكرة من قبله أكدها شاهد الدفاع الثانى مصطفى محمد على الحاج وقد جاء فى إفادة هذا الشاهد بأن هناك اتصالاً ، يومياً بين شاهدى الاتهام الثانى عشر والتاسع عشر عبده كوه بين مكاني حفظهما ، وكان هذا الاتصال يتم بعد كل جلسة تحقيق فى هذه القضية وأن مثل هذا السلوك قد يدل على الترتيب وبناء المواقف بالتنسيق بينهما لتجنب أية مساءلة جنائية ، هذا فضلاً عن أن الكذب فى جزء من الإفادة يعنى أن الشاهد ليس مصدر ثقة وبالتالي فإن الاعتماد على أقواله فيه الكثير من المخاطرة التى لا تحمد عواقبها .

وفى رأينا أن أقوال هذا الشاهد أيضاً ترقى لدرجة أقوال الشريك لأنه هو الذى نقل الأمر وهو الذى عين الجندى الجلاد وقد كان أمراً طبيعياً أن يكون فى قفص الاتهام لولا أن لجنة التحقيق ارتأت ضد هذا المتهم بما فى ذلك أقواله عند الاستجواب أنها لا تؤدى إلى القول بأنه أصدر أمراً بإعدام الأسرى وأن ما دار بينه وحسن دفع الله من نقاش لا يرق لمستوى الإغراء المطلوب لتأسيس الإدانة تحت المادة ٢٥١/٨٤ حيث لم يترتب على هذا النقل الشفوى للإشارة

- بافتراض حدوثه - أى أثر ، بل نعتقد أن تدخل المتهم الرابع عبد الله إبراهيم حبيب الله عن طريق حسن دفع الله للتشفع لرئيس الجمهورية السابق كان له دور فى حقن دماء بقية الأسرى الذين أرسلوا بالطائرة إلى الخرطوم حيث لم يصيبهم أى أذى كما قال بقية الضحايا المثار بشأنهم الاتهام . والقاعدة الذهبية فى القوانين الجزائية تقضى بوجوب تفسير الشك لمصلحة المتهم ، ونحن نرى أن البيانات التى طرحت يعترها الكثير من الشك ، بل إن من أدلوا بها هم أنفسهم موضع شك على ضوء مواقفهم من القضية ، وقد يقال أن تيراب الغالى قد أقر فى مرحلة التحريات بأنه تلقى الأمر من المتهم حبيب الله إلا أن هذا الإقرار فضلاً عن عدوله عنه فإنه لا يقيس غيره على ضوء القواعد المعروفة فى قانون الإثبات ، لذا ترى المحكمة أن المتهم غير مذنب تحت المادة ٢٥١/٨٤ أو أى مادة جزائية أخرى .

المتهم تيراب الغالى نوار :

الاتهام الموجه لهذا المتهم هو أنه حرض على قتل المرحوم محمد أحمد مصطفى ووجه إليه الاتهام تحت المادة ٢٥١/٨٤ من قانون عقوبات السودان لسنة ١٩٢٥ م ، والسؤال المطروح كالاتى :

هل قام المتهم بتحريض أحد الجنود بقتل المرحوم محمد أحمد مصطفى ؟
أعتقد أن الإجابة يتعين أن تكون بالإيجاب . فقد أكد شاهد الاتهام الثانى عشر صديق أبو الحسن أنه بعد أن أتى من الكرمك لتبليغ القيادة العامة عن طريق الدمازين تلقى أمراً من القيادة العامة وهو غير متأكد إن كان هذا الأمر من جعفر نميرى أو غيره إلا أن فحوى الأمر هو إبادة الأسرى ، وعندما حاول أن يستفسر عن شخصية المتحدث ولرداءة خط الاتصال التليفونى وقبل أن يتأكد سأله المتحدث عن رتبته وعندما علم أنه رقيب سأله إن كان هناك ضابط . أجابه الشاهد بالإيجاب وسلم المحادثة للمتهم تيراب الغالى نوار . فيما بعد ذكر له المتهم أن هنالك تعليمات بإبادة الأسرى . واسترسل الشاهد فى شهادته وذكر بأن المتهم تيراب الغالى نادى أحد الجنود الشماليين وأمره بتنفيذ

إعدام المرحوم إلا أن الجندي الشمالى تردد وفى الحال وجه المتهم أوامره الجندى آخر من أبناء الإقليم الجنوى وأبدى الجندى استعداداه ، وفى الحال طلب المتهم تيراب الغالى إلى الأسير السير فى اتجاه حدده المتهم تيراب الغالى إلى الأسير وأثناء سيره عاجله الجندى الجنوى بطلق نارى اخترق الرأس من الخلف وخر صريعاً . ويجلر بنا أن ننوه بأن لجنة التحقيق فشلت فى التعرف على شخصية الجندى الجنوى الذى نفذ أمر الإعدام . شاهد الاتهام الثالث عشر الرفاعى عمر ذكر على صحيفة ٢٢٧ من يومية التحصى بأن المتهم تيراب الغالى أخبره بأن التعليمات أن الشخص الحى يقتل وطلب إليه أن يعين اثنين من الجنود لكى يحضروه ، وذكر بأنه عين شخصين من الجنود وقاما بإحضاره وطلب إليه أن يطلب إلى الذين يقومون بالحفر - أى حفر المقابر - ألا يلتفتوا إذا سمعوا طلقاً نارياً وذكر بأنه فعلاً سمع صوت طلق نارى بعد ذلك قاموا بدفن ثلاثة جثث إحدى هذه الجثث فى مقبرة وحده والجثتان الأخريان فى مقبرة واحدة . لقد وردت إفادات مشابهة من شاهدى الاتهام الحادى عشر حسن أحمد دفع الله والثالث عشر محمد يوسف تلب إلا أننا سبق أن طرحنا إفادات هذين الشاهدين جانباً ، ومع ذلك فإن هذه النقطة من البيانات وردت فيها إفادات متناقضة نعتقد أنه من الأصوب التعرض لها بشيء من التفصيل لنرى ما إذا كانت إفادة هذين الشاهدين تتماشى مع المجرى العادى للأمر أم لا . لقد جاء فى إفادة شاهد الاتهام الحادى عشر حسن أحمد دفع الله بأنه بعد عودته من قرية أونسه موقع الأحداث التى ضرب فيها الإمام الهادى طلب إلى شاهد الاتهام الثانى عشر صديق أبو الحسن بأن يحضر قواتهم الكامنة فى خلا الكرمك لمراقبة تهريب السلاح لتأمين المدينة ، وبعد أن أحضرت القوات طلب إليه أن يذهب إلى الدمازين لإبلاغ القيادة العامة بمحادث ضرب الإمام الهادى وإرسال طائرة لأخذ الأسرى من الدمازين ، وفى حوالى الساعة السابعة مساءً أخطر بوفاة المرحوم الهادى عبد الرحمن ، واستشار المتهم السابق مختار طلحة بضرورة قيامه شخصياً للدمازين بعد حدوث الوفاة ووافقه فى رأى وعين أحد أفراد الشرطة لأخذ شاهد الاتهام الحادى عشر إلى الدمازين بعربة الشرطة وواضح من البيانات أن هذا السائق هو شاهد الاتهام رقم (١٤) حسن أحمد آدم الملقب (بجنتوب) .

ذكر الشاهد الحادى عشر بأنه بعد مسيرة (٦) ساعات تقريباً وعلى بعد ساعة من مدينة الدمازين قابل المتهم تيراب الغالى على رأس قوة لا يذكر عددها ولكن كانت مع القوة أكثر من عربتين ، ووجد الرقيب صديق أبو الحسن شاهد الاتهام الثانى عشر ضمن القوة وعندما سأله عما فعله بشأن الأوامر التى أعطها له بالكرمك ، ذكر له - أى صديق أبو الحسن - بأنه نفذ التعليمات بحذافيرها إلا أن هنالك تعليمات من المتهم عبدالله إبراهيم حبيب الله بدفن الجثث وإبادة الأسرى ، وأنه كلف بمرافقة فرقة الإعدام لأنه يعرف الطريق . ذكر شاهد الاتهام حسن أحمد دفع الله بأنه عرج على الملازم تيراب الغالى الذى أكد له الأوامر وعلى هذا الأساس تركهم وواصل سيره إلى الدمازين . شاهد الاتهام الثانى عشر صديق أبو الحسن أكد أنه ذهب إلى الدمازين بناء على تعليمات شاهد الاتهام الحادى عشر حسن أحمد دفع الله واتصل بالقيادة العامة من الكبائية العامة وأبلغ المعلومات للمقدم كمال . ابشر بوفاة شخصين ووجود الأسرى ، ثم انتقل للقيادة بالدمازين انتظاراً لتعليمات من الخرطوم ووجد الضابط النوبتجى هو تيراب الغالى والذى أرسل بدوره للرائد حبيب الله باعتباره رئيسه الأعلى وحضر حبيب الله وتم اتصال بالتليفون وتلقى تعليمات من حبيب الله يرافقه الملازم تيراب لدفن الموتي وإفاده بأنه جمع رجاله وتحرك مع تيراب . أما شاهد الاتهام الثالث عشر الرفاعى عمر فقد أكد أنه كلف بحمل جثث الإمام الهادى وسيف الدين الناجى فضلاً عن المرحوم محمد أحمد مصطفى الذى كان حياً وقتها وذكر بأنه أثناء سيره إلى الدمازين بالجثث والأسير قابل قوة بقيادة تيراب غالى . وشاهد الاتهام التاسع عشر محمد يوسف تلب وبقى معهم حتى تنفيذ قتل المرحوم محمد أحمد مصطفى ودفن الجثث . أما شاهد الاتهام التاسع عشر فقد ذكر أن المتهم عبدالله إبراهيم حبيب الله استدعاه وأمره بالتوجه لقيادة حامية الكرمك وأن يعرج على المتهم تيراب الغالى ويبلغه بأن ينفذ تعليمات الخرطوم التى فهم أنها تعنى إعدام الأسرى . وتوجه فعلاً وفى الطريق وجد تيراب الغالى على رأس قوة ومعهم ثلاث عربات ديملر وعربة استيشن تخصص الاستخبارات ، وعند وصوله أخبر تيراب بالأوامر وفعلاً

تم إعدام الأسير الحى وعندما بدأ الجنود فى الدفن توجه هو لمنطقة الكرمك . أما شاهد الاتهام الرابع فقد أكد أنه أخذ أحد ضباط الجيش إلى الدمازين وفى الطريق قابلهم مجروس واقف بجانب الطريق ونزل الضابط وتوجه ناحية العساكر بموقع المجروس وسمع حديثاً دار بينهم ثم سمع صوت طلق نارى ثم عاد الضابط وواصلوا سيرهم حتى الدمازين ثم عاد إلى الكرمك وبرفقته ضابط لا يتأكد إن كان هو نفس الضابط أو غيره . هنالك تناقض بين أقوال الشهود فى هذه النقطة وبالذات عن تحرك الشاهد التاسع عشر محمد يوسف تلب وما إذا كان قد تحرك مع الملازم تيراب ابتداءً أم أنه لحق به فيما بعد ، وما إذا كان شاهد الاتهام الحادى عشر حسن أحمد دفع الله قد حضر لحظة إعدام المرحوم محمد أحمد مصطفى أو لا .

على أية حال فإنه حسب رواية شاهد الاتهام الثالث عشر الرفاعى عمر فإن محمد يوسف تلب كان موجوداً فى مسرح الحادث ولا يهيم إن كان وصل مزامناً للملازم تيراب الغالى بحسب رواية المتهم عبدالله إبراهيم حبيب الله أم لا . ورغم ورود بيئة على لسان شاهد الاتهام الرابع حسن أحمد آدم (حتتوب) بأن الضابط الذى كان يحمله للدمازين قد حضر لحظة الإعدام إلا أننا نستبعد هذا الاحتمال والاحتمال الأرجح هو أن يكون سماعه للطلقة عند عودته من الدمازين وهو يقل شاهد الاتهام التاسع عشر محمد يوسف تلب ويجوز أن يرد هذا التناقض لطول المدة . على أية حال هذه البيانات التى وردت على ألسنة شهود الاتهام الذين استعرضنا إفادتهم تقطع بوجود المتهم تيراب الغالى فى مسرح الحادث ، وقد أكد كل هؤلاء الشهود بأن المتهم تيراب الغالى هو الذى أصدر الأمر بإعدام المرحوم محمد أحمد مصطفى . إن توجيه مثل هذا الأمر يتضمن تحريضاً مباشراً فى معنى المادة ٨٢ (أ) ويدخل فى معنى الإغراء المعروف فى النص ، وبما أن هذا التعريض قد أنتج أثره بقتل المرحوم محمد أحمد مصطفى فإن أركان المادة ٨٤ من قانون العقوبات تكون منطبقة تماماً .

والسؤال الثانى المطروح هو : هل قتل المرحوم محمد أحمد مصطفى قتلاً عمداً ؟ هذا السؤال يمكن الإجابة عليه بالإيجاب - لقد ترتب على التحريض

أن أطلق أحد الجنود النار على المرحوم محمد أحمد مصطفى في رأسه حتى تمشمت الجمجمة وقد كان ضربه من الخلف وهو أعزل يسير نحو جِمامه لا حول له ولا قوة، ولم يكن يلمس سوى القبلة بحسب ما ذكر الشهود. وخر صريعاً في الحال وقد أكد التقرير الطبي أنه - أى المرحوم - توفى نتيجة لإصابته في الرأس، أما ركن القصد فقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك وقد كانت هنالك نية مبيتة لإزهاق روحه وقد تجلّى هذا القصد في السلاح المستخلم واختيار أكثر المواقع حساسية في الجسم الإنساني وهو الرأس، مع الغياب التام لأى عذر من الأعذار القانونية المنصوص عليها في قانون العقوبات سواء في المادة ٥٥ و ٢٤٩ منه. وبالتالي فإن أركان المادة ٢٥١ متوافرة بما لا يدع مجالاً للشك، وأن مجرد علم معرفة من وجه إليه التحريض لا يعنى انعدامه، لأنه ثبت أن المتهم حرّض شخصاً بعينه وقام بالقتل بناء على هذا التحريض. بالنسبة للدفع التي طرحت من قبل الدفاع هي أن المتهم كان ينفذ أمراً عسكرياً، وأنه يعانى من اضطرابات نفسية. وبالنسبة للاضطرابات النفسية فقد عالجتها من ناحية إجرائية المادة ٢٦٨ من قانون الإجراءات الجنائية لسنة ١٩٨٣ وجاء فيما معناه أن المحكمة إذا ظهر لها أثناء المحاكمة ما يحمل على الاعتقاد بأن المتهم مختل العقل وأنه نتيجة لذلك غير قادر على الدفاع عن نفسه فيجب وقف المحاكمة وإحالة المتهم لى يفحص بواسطة الطبيب أو أطباء مختصين ويكون لزاماً عليهم أن يقدموا تقريراً بنتيجة الفحص للجهة التي تتولى المحاكمة. لم تلاحظ المحكمة أية تصرفات غير عادية للمتهم، وهى المؤشر للجنون سواء من أفعاله أو أقواله، بل إن أقوال المتهم جاءت متسقة في جميع مراحل القضية منذ مرحلة التحريات وحتى إدلائه بأقواله أمام المحكمة الكبرى.

وعلى أية حال فإن ما ورد في التقرير الطبي مستند الدفاع رقم (١) لا يشير إلى أن المتهم يعانى من جنون دائم أو مؤقت أو عاهة عقلية وفقاً لأحكام المادة ٥٠ من قانون العقوبات، وأن الإستهاء السادس والوارد في المادة ٢٤٩ (أ) والذي يعد أكثر ملائمة لهذا التقرير لا ينطبق على حالة المحرض بل هو استثناء شرع بغرض التخفيف من مسؤولية القاتل استثناء على قضاء المحكمة

العليا في قضية حكومة السودان ضد نفيسة دفع الله المنشور في المجلة القضائية ١٩٦١ صفحة ١٩٩ وبالتالي فلابال مناقشة هذا الدفع، ونرفض التقرير المقدم، ولعل الملاحظ من التقرير أن إعداده كان الغرض منه إطلاق سراحه بالضمان فقط.

نأتى للدفاع الثانى والمتعلق بالأمر الموجه من الرئيس الأعلى، فقد نصت المادة (٤٤) من قانون عقوبات السودان بانتفاء الجرم إذا وقع الفعل من شخص ملزم قانوناً بالقيام به أو يقره القانون على فعله، ومع تمسك الدفاع بهذا الدفع إلا أن الاتهام أشار لأحكام صدرت من المحكمة العليا الموقرة في قضية ترحيل الفلاشا المنشورة في كتاب أشهر المحاكمات السياسية في السودان إعداد وترتيب القاضى هنرى رياض صفحة ٨١ طبعة دار الجيل بيروت، وقد استند الاتهام على رأى المحكمة حيث أوردت، في معرض شرحها للمادة المذكورة ما يلى (إن الدفع الرئيسى الذى يعتمد عليه المتهم هو أنه فعل ما فعل بصفته ضابطاً في قوة نظامية وكان ملزماً بتنفيذ الأمر الصادر إليه من رئيسه الأعلى ولسنا نجد كبير عناء في الرد على هذا الدفع، فكما أن القاعدة الشرعية أن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق فكذلك القاعدة القانونية الوضعية أن لا طاعة لمرؤوس في أمر مخالف للقانون مخالفة بينة لأن المرؤوس إن أطاع الأمر في هذه الحالة يكون قد خالف القانون وهو عالم بذلك فيصبح مسئولاً شخصياً عن تلك المخالفة ولم نجد فيما ساقه الدفاع من اقتباسات أو سوابق ما يقول بغير ذلك، وقد كرس هذه القاعدة في محاكمة مجرمى الحرب في نومبرج وطوكيو بحيث أصبحت قاعدة من قواعد القانون الدولى ولعل أشهر تطبيق لهذه القاعدة حديثاً هو إدانة الملازم الأمريكى الذى أباد الفيتناميين العزل في قرية مائى لار وهذا هو موقف القانون السودانى).

وإذا تلمسنا رأى الفقه المقارن في مسألة الأوامر التى تصدر للعسكريين ومدى رقابة المرؤوس على مشروعية الأمر، فقد جاء في كتاب العلامة الدكتور محمود محمود مصطفى في كتاب الجرائم العسكرية في القانون المقارن طبعة ١٩٧١ دار النهضة العربية على صحيفة ٦٨ في الفقرة ٣١ ما يلى:

(المسألة الهامة في الفقه هي: هل يجوز للمرؤوس أن يناقش مشروعية الأمر بعناصره الثلاثة المتقدمة - وهي وجود أمر من رئيس واجب طاعته ومضمون الأمر يدخل في سلطته وأن يكون تنفيذ الأمر مما يدخل في واجبات المرؤوس - ونبادر إلى القول أنه لا يوجد تشريع يأخذ بمبدأ الخضوع المطلق أو الطاعة العمياء، كما أنه لا يوجد تشريع يقصد التزام المرؤوس بالطاعة على الأوامر المشروعة من الناحية الموضوعية وإنما تأخذ المشروعات بحل وسط فإذا وصف عدم المشروعية في الأمر واضحاً فيجب على المرؤوس الامتناع عن تنفيذ الأمر هنا ولا خلاف بين القانون العام والقانون العسكري. فإذا أمر الرئيس مرؤوسه بارتكاب جريمة قتل أو استعمال قسوة أو تزوير أو اختلاس فأطاع أمره كان الاتيان مسؤولين عن الجريمة، فليس على المرؤوس أن يطيع رئيسه في أمر محرم وجرم يعلم هو أن القانون يعاقب عليه. ولا يشفع للمرؤوس أن يدفع بجهله بقانون العقوبات؛ فمعلوم أن الجهل أو الغلط في قانون العقوبات لا يصلح دفاعاً ولا ينفي سوء القصد). وقد تناول المرجع المشار إليه في الفقرة (٣٣) صفحة ٧١ مسؤولية المرؤوس عن تنفيذ امر غير قانوني فذكر بأنه (لا صعوبة فيما لو كان المرؤوس يعلم أن الأمر غير قانوني فهو مسئول عن الجريمة التي يرتكبها تنفيذاً لهذا الأمر ولكنه قد لا يعلم بذلك أو على الأقل بجهل حقيقة ما يرتكبه تنفيذاً للأمر هل هو جريمة أو عمل مباح؟ وليس المقصود هو الجهل أو الغلط بأن الفعل يكون جريمة طبقاً لقانون العقوبات فلا يصلح ذلك علراً وإنما المقصود هو عدم العلم يقيناً بالوقائع أو الظروف التي تجعل من أمر الرئيس وبالتالي تنفيذه عملاً مباحاً. أي الغلط في صيغة الأمر هل هو رئيس أم لا أو الغلط فيما إذا كانت سلطته تتسع لمضمون الأمر وفيما إذا كان التنفيذ يدخل في واجبات المأذون. ولا صعوبة كذلك فيما لو لم يكن علم مشروعية الأمر واضحاً فعندئذ يحق لمنفذ الأمر أن يدفع بانتفاء علمه بعلم المشروعية ولكن الصعوبة فيما لو كان علم المشروعية واضحاً Marifesse فرغم ذلك يتصور أن ينخدع البعض فينفذ الأمر معتقداً بمشروعيته فهل يعد مسؤولاً عن الجريمة أو لا يعد على أساس الغلط في الوقائع، ولزيادة الإيضاح هل يؤخذ في

تقدير عدم المشروعية بضابط موضوعي أو بضابط شخصي وفي هذا الضابط الأخير هل يؤخذ بمعيار الشخص العادي أو بمعيار نفس الشخص الذى وقع فى الخطأ .

إن غالبية التشريعات تأخذ بمعيار موضوعي فمتى كان من الواضح فى الأمر عدم المشروعية أى أن تنفيذه ينطوى على جريمة فإن على المرؤوس أن يمتنع عن تنفيذه وإلا كان مسئولاً، ويعمل هذا بأن يستوى أن يعلم المرؤوس بأن الأمر غير مشروع أو يكون فى استطاعته أن يعلم ذلك وهو ما يتحقق متى كان وجه الإجماع واضحاً فى الأمر . ولمعرفة ما إذا كان الغرض الإجرامى واضحاً يرجع إلى مقياس الشخص المتوسط فى ظروف المتهم من حيث درجته العسكرية وثقافته وأقدميته وغير ذلك مما ينخدع به جندي لا ينخدع ضابطاً وهكذا . ولا يستطيع المنفذ أن يدفع مسئوليته بصور الأمر من شخص له نفوذ عليه بحكم رئاسته فهذا لا يكفى لقيام الإكراه أو الضرورة ، ولذلك قد يقترن الأمر بالتهديد بخطر جسيم على النفس إذا لم ينفذ وعندئذ يصح الدفع بالإكراه فإذا كان أمر المرؤوس أن يواجه الخطر الذى يكون مصدره العدو فليس عليه أن يواجهه مثل هذا الخطر إذا كان مصدره هو رئيسه .

على أن بعض التشريعات يأخذ بمعيار شخصي ، فلا يكفى أن يكون الغرض الإجرامى واضحاً فى الأمر وإنما العبرة بالعلم الحقيقى لعدم مشروعية الأمر) . ويواصل الدكتور محمود محمود مصطفى فى بسط وجهة نظره على صفحة ٧٣ ويقول (وفى اعتقادنا أن المذهب الشخصى ، يفضل المذهب الموضوع فهو يتفق مع المبادئ العامة التى تقضى بأن القصد يبنى على العلم اليقيني فلا يستتج من واقعة ولا مبرر للخروج على ذلك فى الجرائم العسكرية بل إن التزام القاعدة أولى فيها ، فإذا كان القانون العام يوجه للجميع فإن القانون العسكرى يخاطب العسكريين الذين لا يترك لهم النظام العسكرى مجالاً فسيحاً للتردد أو التحقق من صحة ما يصدر إليهم من أوامر .

وأخيراً يلاحظ أنه فى التطبيق العملى يقترب النظامان فقلما يطرح فى النظام

الموضوعى الدفع بالغلط فى الإباحة ولو كان هدم مشروعىة الأمر واضحاً مالم يكن الدفع بالغلط فى القانون) .

واضح من الشرح أعلاه أن الدكتور محمود محمود مصطفى يفضل الأخذ بالمذهب الشخصى والذى كان من الممكن أن يقيد المتهم فى دفاعه إلا أن محكمتنا ملزمة بالأخذ بما يستقر عليه فقه القضاء السودانى على هدى السوابق القضائية التى تصدر من المحاكم الأعلى وفقاً لما قرره المحكمة العليا فى قضية عوض عبد الرحمن ضد محمد حسن الغول المجلة ١٩٧٥ صفحة ٢٠٢ . وعليه فإننا نرى بأنه لا مجال من الانعتاق مما قرره المحكمة العليا فى قضية تهريب الفلاشا ونقرر بأن المتهم لا يستفيد من هذا الدفع . أما بالنسبة للدفع المثار ابتداء والخاص باستفاداة المتهم من المادة (٢) من قانون الإعفاءات لسنة ١٩٧٧ فإن ما ينطبق على هذا المتهم لا يخرج عن رأينا الذى سبق أن أوردناه بالنسبة للمتهم الثالث وداعة على سيد أحمد .

لما تقدم من أسباب تقرر مسئولية المتهم عن المواد ٢٥١/٨٤ من قانون عقوبات السودان لسنة ١٩٢٥ .

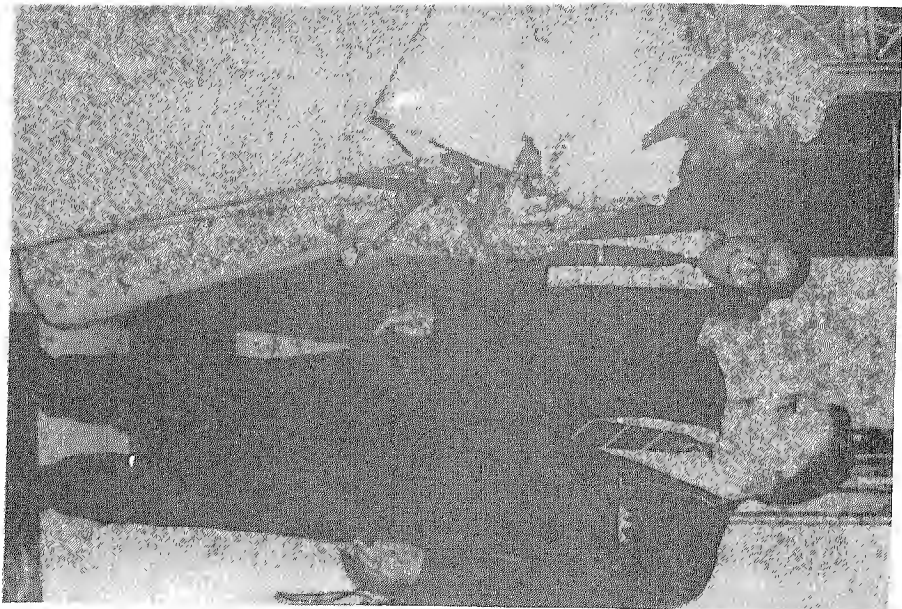
(ملحق بالصور)



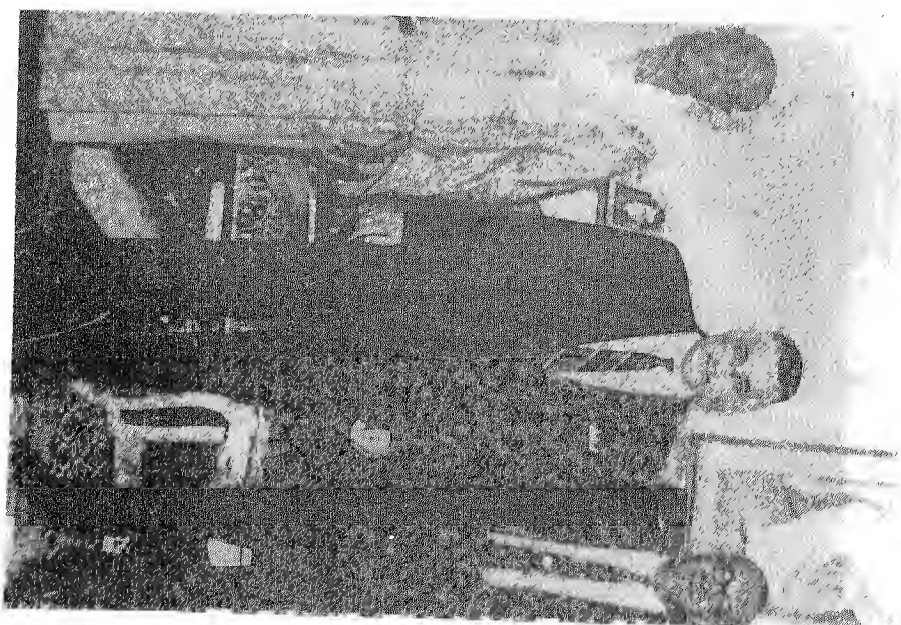
الإمام عبد الرحمن المهدي مع الزعيم الراحل محمد نجيب



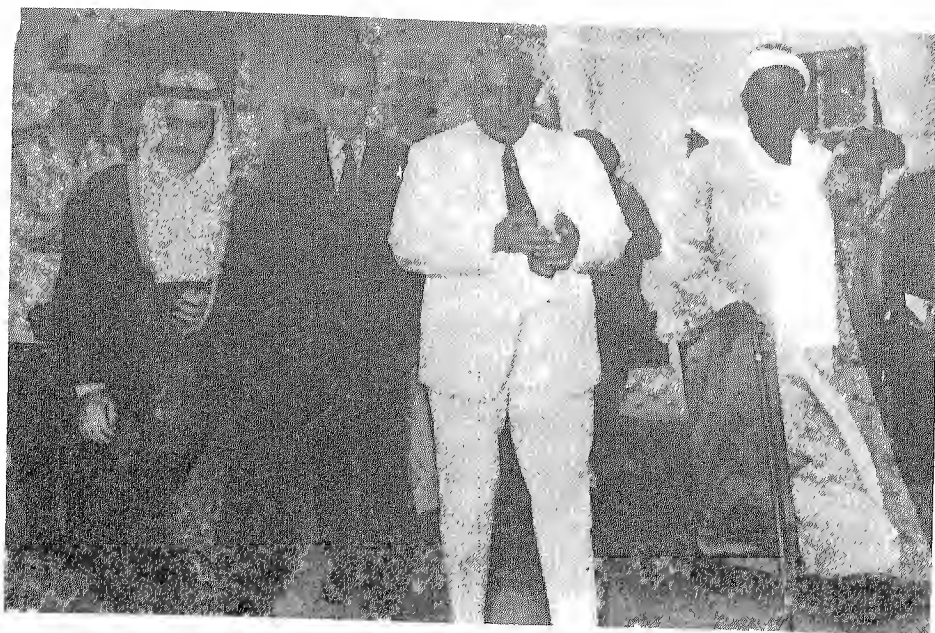
الإمام الهادي المهدي يستقبل الملكة اليزابيث



الإمام الهادي المهدي
مع الزعيم الراحل جمال عبد الناصر



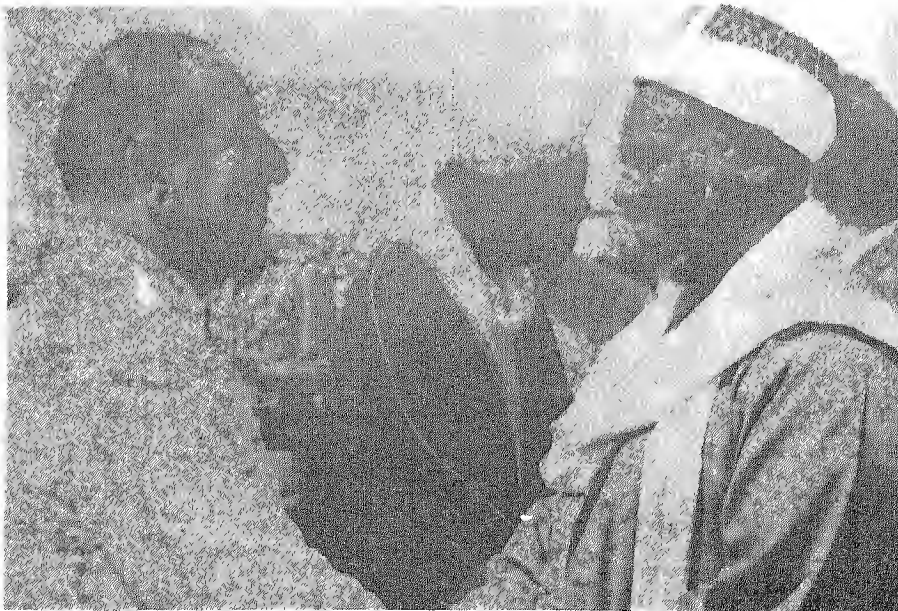
الإمام الهادي المهدي مع الزعيم الراحل
جمال عبد الناصر



الإمام الهادي في استقبال
سمو الشيخ الصباح السالم الصباح



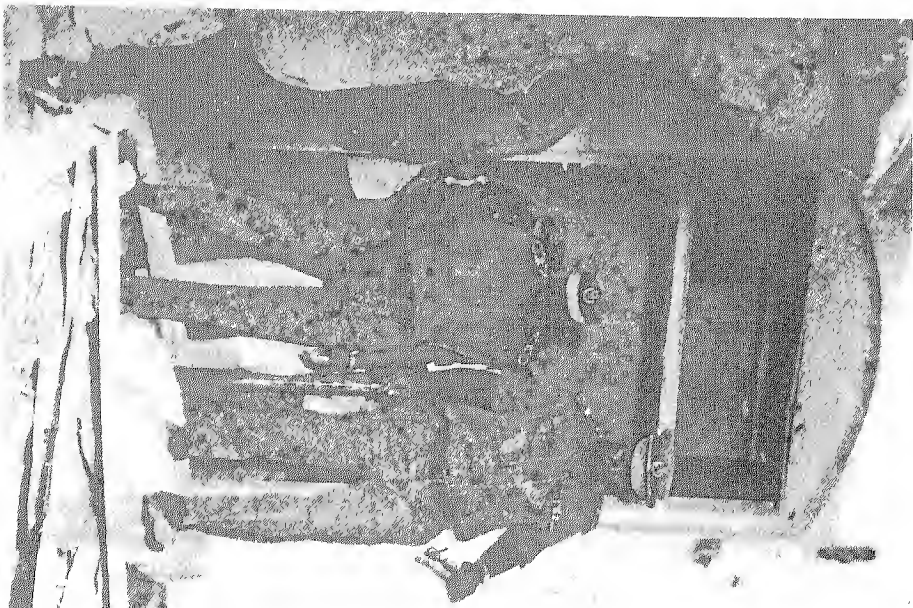
الملك فيصل والإمام الهادي (أمدرمان)



الإمام الهادي المهدي يستقبل الرئيس اللبناني
شارل الحللو



قبة المهدي بعد معركة كررى ١٨٩٨ بعد تعرضها
لقصف قوات الاحتلال المصري الانجليزى



دعاة ثورية الأمم وناهضوا ثروة الشعب وقوته
يتجولون في صلف على حطام جريمتهم الكراء



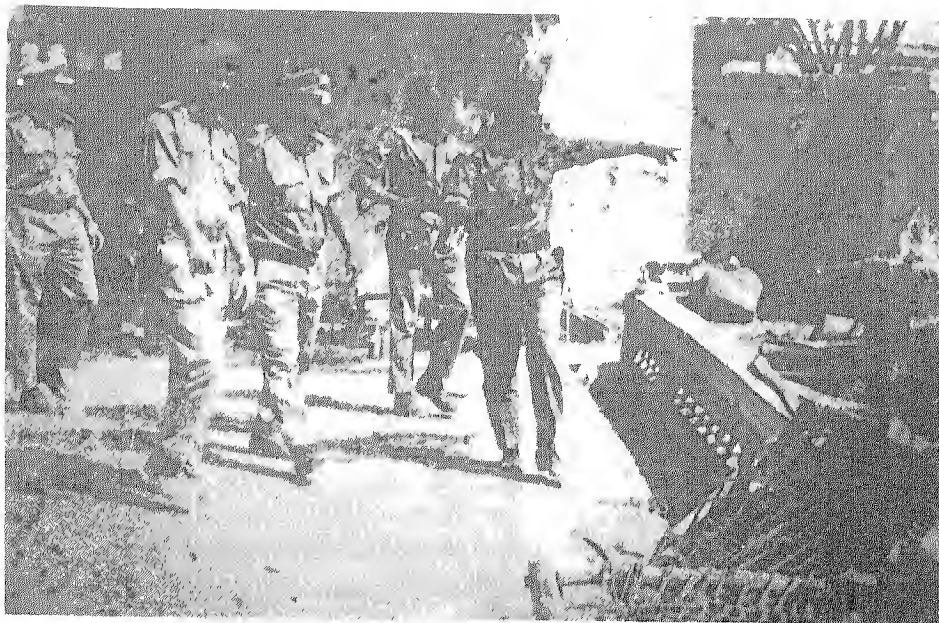
الإمام الهادي المهدي يشارك
في مؤتمر المائدة المستديرة



أحمد بشير حامد جبريل
أسره الطغاة ودفعوه جياً



سبعة جريتهم الكراء تكسو وجوههم سراداً و عاراً
الجزيرة أبا أبريل ١٩٧٠
جعفر النوري، أبو القاسم محمد إبراهيم، خالد حسن عباس



ترى ماذا يتفقدون وهم صناع الجريمة النكراء



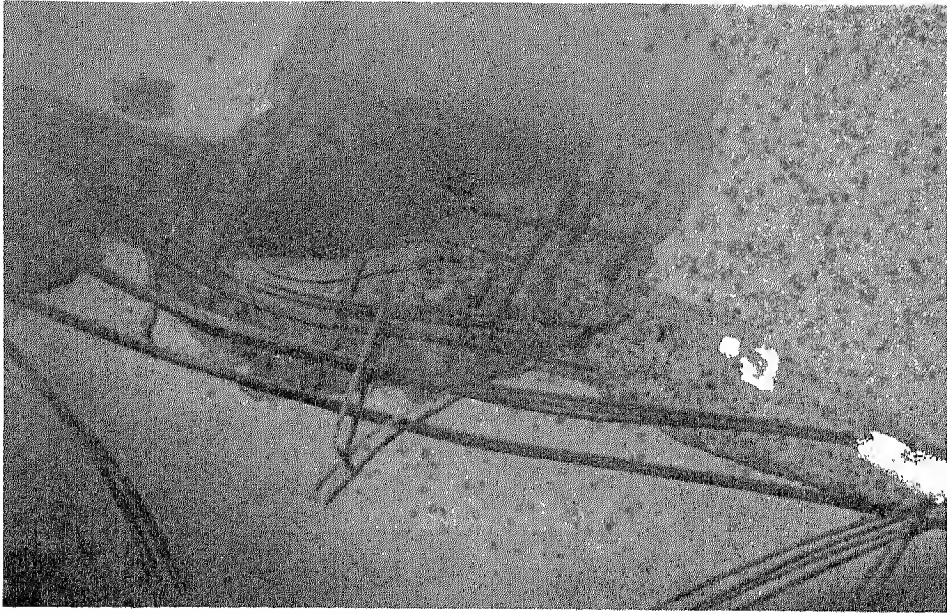
أبو القاسم يوصف للميرى
كيف أنهم أفلحوا في تدمير الآمين



أفراد الضغمة المباداة يتفقدون دماراً من صنعهم
أبأ أبريل ١٩٧٠



الصادق الهادى المهدي ، نصر الدين الهادى المهدي
مقدم صلاح ، شيخ القرية ، واثنان من الشهود
والمترجم بمكان الحادث

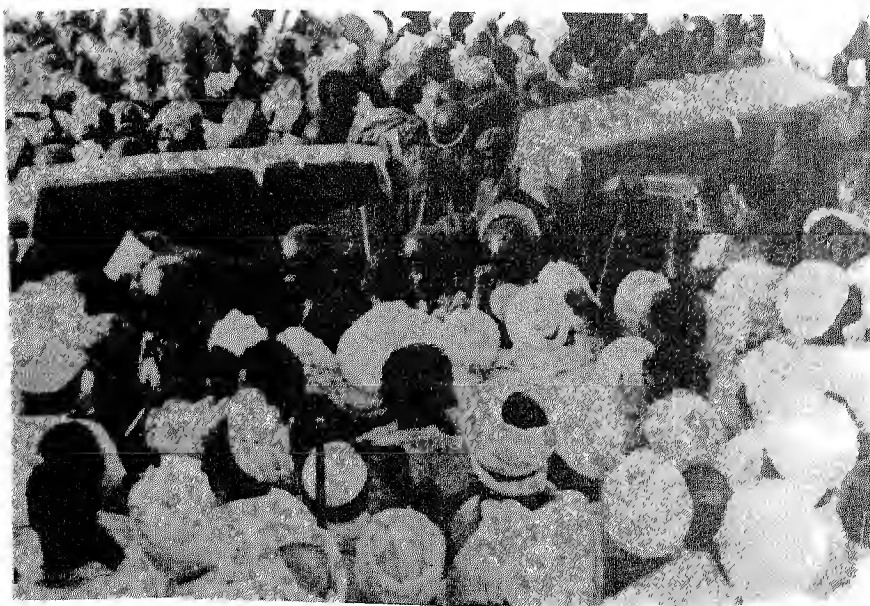


دمروا السراى غير عابئين بأرواح الأطفال
والنساء والشيوخ
أبا مارس ١٩٧٠

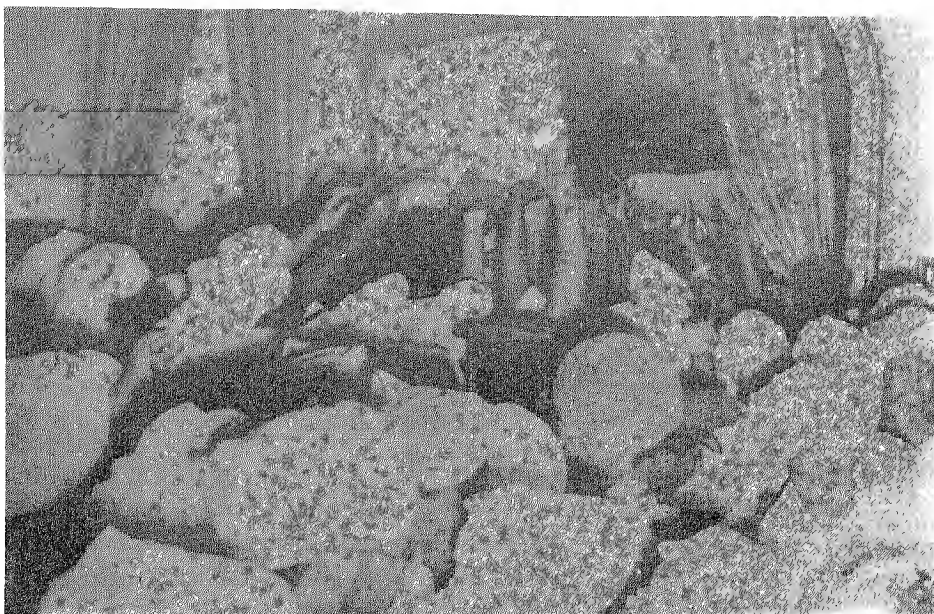


الجزيرة أبا مارس ٧٠

الشهيد سيف الدين الناجي



نقل رفاة الشهداء
الإمام الهادي المهدي وسيف الدين الناجي



رفاة الشهيد الإمام الهادي داخل قبة المهدي بأمدرمان



حشود الشعب السوداني في يوم نقل رفاة الشهداء


الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٣
مقدمة	٥
خلفية تاريخية	٧
أحداث الجزيرة أبا	١٣
أحداث الكرمك	٤٩
كيف واجهنا الحياة بعد مقتل الإمام	٥٣
ردود الفعل للمقالات التي صدرت بمجلة التضامن	٦١
وقائع الجلسة الختامية لمحكمة قتلة الإمام الشهيد الهادي المهدي ومرافقيه	١٠٧

رقم الإيداع ٥٤٥٩ لسنة ١٩٩١



٩٣٢٧٠٦ : ٥

	<p>توزيع دار الأمين للنشر والتوزيع</p>
<p>٨ شارع أبو المعالي (خلف المعهد البريطاني) المجوزة ت/ فاكس ٣٤٧٣٦٩١ ١ ش سوهاج من ش الزقازيق خلف قاعة سيد درويش - الهرم ت/ فاكس ٥٦٣٤٦٩٩</p>	



- دكتور الصادق الهادى
عبدالرحمن المهدي

- تلقى تعليمه الابتدائى بمدرسة
الشرقية بالجزيرة أبا حتى
أحداث ١٩٧٠ ، ثم واصل
بالركابية بأمدردمان .

- الثانوية بأمدردمان الأهلية الحكومية العامة ثم العليا .
- التحق بجامعة الخرطوم كلية العلوم ثم واصل بجامعة الجزيرة
حيث تخرج منها طبيباً عام ١٩٨٦ .
- عمل بمستشفيات العاصمة القومية ثم بمشروع مكافحة الغدة
الدرقية بالفاشر .
- يحضر الآن بجامعة لندن للتخصص فى أمراض القلب .